رواية قصيرة

وكانت الشولةُ معجزتَنا

فاطمة النشاش

فاطمة النشاش

الإهداء..

لكلِّ من شَرَع في قراءة رواية قد خُطّت بأناملِ روائيٍّ ناشئ.

أهديكم حُبّي وشُكري وامتناني ...

فاطمة الشاش

فاطمة النشاش

تتشظّى وكأنها قد أصبحت قنبلةً تنبتُ ورودًا على حين غرّةٍ، وباتتْ تقاسي لوعتها ، وكل دروب السعادة قد أحكمَ إغلاقها في وجهها، وكل ألحانها لم تعد تشبه ما سبقها...

تجوب وتنتظر، ، تبتسم وتقشعّر، وكأن السفن قد أرست على هضاب متصدعة، والنجاة الحقيقة أصبحت صعبة المنال.

دنوتُ منها اكفكفُ سجوم عينها ، وأطلتُ النظر شاردًا في شقوق كفوفها، وخدوشِ رسغها، ولكنها قد تمسكتّ بخطواتها الواثقة، وتقدّمت بعثراتها ولم تتناسى آلامها، فجرحٌ بمثل ما رأيت قد تعدّى من كونها فتاة بعمر الزهور، ولكنني قد التمستُ بها روحًا تشبه روح فتاة الرياح التي لم يعتريها أي شيء قد ضرّ قلبها مثل ما ضرّ ملمسها.

(1)

كي لا تكون الكؤوسُ الفارغة مغبرة وحسب، قد سمحتُ للأضواء الخافتة المتلونة من البناية المجاورة أن تتسرب إليها، وبدت سعيدة للغاية فقد التمست نورًا كأول مرة في وجودها على هذه الرفوف الدائرية التي تأخذ جزءًا كبيرًا من المكان، كم أبغضُ المسارات المغلقة التي مصيرها أن ترتد إلى نقطة البداية،أمن الممكن أن يعيش الإنسان حياته ويتآلف مع الناس، يواجه صراعاته ويتماشى مع أيامه وبعد كل هذا العناء أن يعيش في نهاية المطاف كدر البدايات والتعاسة التي كانت تحلق في سمائهِ كلما أراد أن يُبصر ويختبر صبره على أيامه القادمة، فلا يرتدُّ على هذه الشاكلةِ الغريبة سوى الكؤوس الفارغة التي تلتف حول هذه الطاولة، فلا يمكن للإنسان فعل ذلك، أو بالأحرى عليه ألا يفعل ذلك، لأن الكثير قد انحصروا داخل تلك الدائرة وكانت المفاجأة بأن أعاصيرها لا تنتهي.

....

إنها تسيرُ يا صاح ولكنها تتوقف في كثير من المحطات في العديد من البلاد بلا جدوى ، لا داعي لأن أقسم لك بأنني قد أوشكتُ على فقد الأمل من أن تصل في نهاية الأمر، قد أخبرني الكروان بأن الأمور تجري على ما يرام، ولكنني لا التمس في ذلك الأمر أي خير يذكر، كل ما أدرته هي أن تصل، ولا تقل لي بأن من الممكن أن يكون التأخير هو كل الخير، إنني أتلوى هنا، لأن أراني بها، وأتحسس اسمي الذي نُقش على صدرها، لم أكن أدري بأن الإنتظار أنفاسه ضيقة وغيومه سوداء مدلهمة.

لن أستطيع اليوم أن أنظر مجددًا إلى الرسائل ، فلا تنتظرني يا سام..

....

أحتاج لأن أريح رأسي بعد يوم طويل كهذا، مني ومن أرقي ومن حزني الذي ليس لديّ أدنى قوة على إخماده أو حتى مُدارته فالكثير من زملائي في العمل قد أخبروني بأنني لا أبدو جيدًا في الآونة الأخيرة، وحتى صديقيَ الوحيد الذي أنجبته لي المواقف والأيام الصعاب "سام"، قد اتصل بي عدة مرات بعد أن أرسلت له آخر كلمات قد استطعت نطقها ولم أجب على أي واحدة منها ، قد كان صديقًا جيدًا حقًا على الرغم من مزحاته الثقيلة في الكثير من المرات، عدا عن صوته السيّء في الغناء، فهو شاب أسمر اللون ، طويل القامة، نحيل الخصر، وممتلئ الوجنتين،له شامة في أسفل شفته من الجهة اليسرى، في نحو السابعة والعشرون من عمره ،الأعزب والأكبر في عائلته فقد كان حريصًا عليهم، وكان لإخوته كأبيهم الآخر، ولطالما قد التمست حرصه وعطفه من عينيه الشهلاوان، فهو يحمل طفلًا

سعيدًا مرحًا، مختلًا في تصرفاته، غير مكترث للناس في داخله، وكم أحب أن أتعايش مع هذا الجزء منه في كثير من الأحيان إلا أن قامته الفارعة لا تساعدنا دائمًا، وكان هذا انتصاري الوحيد في هذه الحياة..

تتجاوز الساعة الآن الثانية عشر صباحًا وفي دنياي أملي وصديق نصرتي، والكروان الذي لا يخيّب ظني، وفراشي الذي أحرص على ترتيبه جيدًا، ووسادتي البيضاء، كي أرى أحلامًا ناصعة البياض ، باذخة الجمال ،فليس من الممكن أن يعمّ السواد ليل نهار، قد تناقشت في كثير من الأحيان في عديد من الأمور مع سام تحت شجرة في أرض واسعة جدًا لم ينبت سواها في الأرض البعيدة عن مياه قريتنا، يوجد بالقرب منها بئر فيه مياه تطفو على السطح مرة في كل مساء يوم الإثنين ، كمعجزة كي تبقى تلك الشجرة المثمرة حيّة، وبذلك أُطلق على هذا البئر " البئر المعجزة"، ولم يستطع أحد حل هذا اللغز بعد أن حاول صاحب الأرض آلاف المرات أن يزرع شيئًا بتلك الأرض التي ورثها من جده قبل عقود من الزمن، كم كنا نستمتع هناك، ويلقي سام مزحاته ويمد بساقيه الرفيعتين على الشجرة، وأنا أبتعد عنه بخفية كي أخيفه بحجارة أو بأصواتٍ من بعيد، وهو يظن بأن البئر قد ابتلعني وأنّ ذلك هو صوت ارتطام جسدي بالحطام الذي في قاعه، لم أكن أجيد تأليف الحكايات بشكل جيد، ولكنني أذكر جيدًا هلعه وكيف كانت أسنانه تصطك ببعضها، ويداه ترتجفان، إلى أن وعدته بأن لا أعيد فعل ذلك مرة أخرى بعد أن رأيت حالته تلك، فلقد مرّ زمن طويل ولم نجد وقتًا كي نذهب لزيارة شجرتنا وبئرنا، كمثل الناس حينما يحبون شيئا يضيفون له ياء الملكية.

...

أستيقظ في كل يوم فجرًا كي أصلي وأدعو الله أن يتمم لي الخير في كل ما أسعى إليه وأرتب فراشي ووسادتي وأشرب كأسًا من الماء الدافئ وأتركه على الطاولة ولا يطاوعني غسله وإعادته إلى مكانه، وأرتدي زيًّا رسميًّا لأن العمل يتطلب ذلك، أحب عملي وأجدني لائقًا به، ولكن التعايش مع الناس صعب للغاية، مراسم التحية والمناسبات الكثيرة، والنميمة والغيبة التي تتناقل من مكتب إلى آخر كفيالق الغث منتشرين في كل مكان، وما إن يصمت أحدهم إلا ويبدأ الآخر في حديث أقذر من سابقه للتو، يتناسون أحاديثهم حينما يخرجون من المكتب، وفي الصباح تراهم جميعًا يقبلون بعضهم البعض، مجاملةً بذيئة ، وكأن التنافس كره، وأن المثابرة والحضور باكرًا ورد التحية تسحيجًا !

لا وجود للمثالية في هذا العالم، فإن لم أُضْحِك سنًا يكفي ألا أكسره وهكذا كانت قاعدتي في الحياة، ولكنني لا أخفي بأنني ما زلت قلقًا حيال أن تصل، أمن الممكن أن مكروهًا قد حدث في الطريق ولا أعلم عنه شيئًا، طمئنّ داخلي بلطفك يا إلهي..

تنتهي الأعمال في الساعة السادسة مساءً غالبًا، وأركب في الحافلة التي تستغرق خمسين دقيقة في أحسن أحوالها، فشراء سيارة في هذه المدينة باهظٌ جدًا قد تغرقك القروض، وحتى لا تجد في نهاية الشهر أن تملئها بالوقود، فالتفكير في هذا الأمر يزعجني ولا أحبذ التفكير به، لأن لديّ من الالتزامات

ما يكفيني وينسكب حولي، أفضّل الجلوس بالقرب من النافذة ولكن بطبيعة الحال، وجود مكان لأقف به أمر جيد، ولكنني دائمًا ما أتيه في وجوه الناس، أغوص في شيبتهم وشبابهم، بطفلهم ورضيعهم ،أضيع في حزنهم وفرحهم وغموضهم وتلقائيّتهم، وكأنني أعرفهم منذ زمن، أفكر بما يعانونه وبما يضمرونه في صدورهم وبما يبدونه في وجوههم، وكان ذلك تعديًّا، هكذا من بعيد أستهلك أكبر إحساس لديّ "العاطفة"، فهذا أنا ولست أحدًا آخر..

نزلت من الحافلة التي كانت تقلّ ضعفَ ما تتسع، وكان العَرق يتصبب من جبيني، فلقد انتصف شهر أغسطس فماذا أنتظر من ذلك غير الحرّ الذي لا أستطيع أن أمشي به إلا لدقائق معدودة، فاهتز الهاتف ووصلتني رسالة بكلمات غير مفهومة من شخص مجهول..

" الأمر لا يستمر بهذا الشكل، تحرك رويدًا، رويدًا"..

لم أفهم شيئًا من تلك الرسالة، أمن أحدٍ يتعقبني الآن، أم أنها أرسلت لعنوان خاطئ، أتساءل إن كان الخطأ وسوء الحظ يبحث في حيّنا ليجدني لوحدي أم ما الذي يحدث؟

أعدت قراءة الرسالة عدّة مرات لم أعي جيدًا ما الذي تصبو إليه، فدسَسْتُ الهاتف في جيبي ومضيت في طريقي، وصادفت حلاق حيّنا فلقد مرّت ثلاثة أسابيع لم أقص شعري أو أشذب لحيتي، ألقيت عليه التحية وردّها بأحسن منها، وقال : اشتقت إليك يا رجل، ثم تابع مازحًا وابتسامته على شفتيه، أم أنك قد وجدت حلّاقًا آخر؟ فأخبرته بأنني لا أسلّم رأسي إلا إليه، فسألني عن أحوالي وعن عملي في الشركة وعن عائلتي، فحمدت الله وأخبرته بأنني سأزوره في وقت قريب ولوّح ليّ قائلًا احترس جيدًا يا علي، في حرص الله ورعايته.

هكذا هو العم ناجي دائمًا يهتم بالجميع، ويسأل عن أحوالهم، فلقد كان يأخذني إليه جدي كنزهة في صغري، لم يكن بحاجة لأن يقصّر من شعره لأنه كان أصلعًا، فكان يحفّ شاربه ويطيل لحيته البيضاء، كم كنت أحب وجود جدي وقصصه الكثيرة المرعبة والمضحكة منها، وكان العم ناجي أخًا عزيزًا عليه، فبعد وفاة أبي، وانتقال أمي واخوتي إلى بلاد بعيدة بجوار جدي. والد أمي .وكان هذا قرارها، لم أستطع أن أتخلى عن منزلنا الذي عشنا به أجمل أيامنا، والذكريات السعيدة مع جدي وأبي، والحيّ الذي كبرت به وعشت فيه طفولتي، حتى لو كانت بائسة في أكثر الأحيان، ولكن كان الرحيل ثقيلًا على قلبي ولم أفكر بالهرب من واقعي وتحملّ النتائج، فها قد مرّت سبع سنوات وأنا أعيش بمفردي، وكسبت وظيفة منذ عامين ونصف، وفي كل شهر أرسل مبلغًا ماليًا كي أساعد أمي، لم أغضب منها حينما خيرتني، ولكنها قد عَظُمَتْ في عيني، باستطاعتها التخلي عن الماضي، وصنع مستقبل لإخوتي حتى إن لم يكن باهرًا يكفي أنه بأكثر ما تستطيع فعله، لا أنكر بأنني أفتقدهم دائمًا ولكنني ما زلت

على الوعد الذي قطعته على نفسي، أن أعيد أمي وإخوتي إلى منزلنا وحيّنا وأن أعيلهم وأحافظ عليهم وأحميهم، وبأن لا يحتاجوا أي أحد آخر..

رفعت المفتاح وهممتُ لأن أفتح قفل الباب، ولكن استوقفني طرد قد ترك أسفل الباب، انحنيت والتقطته بيديّ، ودخلت المنزل، فتحت الطرد المغلف بورق الهدايا المورد، كان حجمه صغيرًا، فوجدت وردة حمراء شبه ذابلة، أظن أنها ركنت أسفل الباب منذ الصباح الباكر،وبجانبها ورقة صغيرة قد كتب عليها:

"دع الماء يجري بين قدميك ولا تكترث"..

لم يكتب أي شيء آخر، ولا حتى توقيع صغير، تهت مجددًا، ما الذي يحدث هنا، في الطريق رسالة والآن طرد إلى المنزل، لا أفهم شيئًا، أمن الممكن أن يكون الشخص نفسه الذي فعل ذلك، وإن كان كذلك، فمن هذا؟

شممت الوردة ووضعتها داخل كأس على الطاولة، واستدعيت سام إلى المنزل كي نفهم أصل الأمر، أخبرني سام بأنه لم يتوصل إلى صاحب الرسالة التي أرسلت إلى هاتفي، وقد سألتُ حارس العمارة إن دخل أحد غريب إلى العمارة اليوم، ولكنه أجاب نافيًا بأنه لم يدخل أي أحد إلى العمارة لا يعرفه.. !

....

"أيًّا كان الشيء الذي يشغلني الآن فما زلت بانتظاركِ كي تصلين بلا توانٍ، أن تكوني كما عهدتك صادقة حرة، تمثليّن نفسكِ فقط، ولا تتعثرين بأي شيء آخر، ها أنا أتصارع مع الحياة، ولكنني ائتمنتك على كل ما في قلبي وعقلي وحياتي ومبادئي وأفكاري، وأنتظرك بلا كلل، لكي تكوني أنا، كما اتفقنا"..

(2)

لم نأكل أنا وسام شيئًا منذ عودتي من العمل، لأنني كنت أطمح بأن أعرف شأن الرسالة والطرد قبل أن أخلد للنوم ولكن ذهب جهدنا هباءًا منثورًا ولم نتوصل إلا أي شيء، فلم يقبل سام أن يبقى في بيتي هذه الليلة، فقد كان هادئًا كثير التأمل، ولم أستطيع حله كما يتوجب، ولكننا قد اتفقنا أن نتقابل قبل حلول المساء غدًا عند البئر المعجزة..

وكأنني أسمع صوت أبي وهو ينده بأعلى صوته مناديًا جاد،علي، مزينة، تعالوا إلى حضني، كنا نتدافع كي يصل أحدنا إلى أبي أولًا، ويمسّد على صدغيه ويقبّل وجنتيه، ويضمه إلى صدره، ويأتي صوت أمي من المطبخ قائلة : قد أصبح الغداء جاهزًا، هيّا إلى الطعام، وكنا نجلس على الطاولة ونبدأ بالمشاكسة حتى يغضب أبي، ويطلب منا أن نهدأ، قبل أن يحرمنا من تناول المثلجات التي يجلبها لنا من أيسر البقال، ونهدأ مرغمين، ويسمح لي أبي أن أرافق سامًا ونلهو كما نشاء، كنت المتوسط بين اخوتي ولكنني كنت جسورا بما يكفي لأقتحم العالم قبل ريعان الشباب، لا أذكر كم من المرات قد وبخني أبي بأن لا أقترب من البئر المعجزة وأن لا أتجاوز البقالة في الحيّ، ولكنني كنت شقيًا بما فيه الكفاية فلا أستمع لكلام أبي ولا أكترث لحرصه الزائد..

لم أنم جيدًا في الليلة السابقة، وارتديت قبل موعد العمل بساعة، كي أشرب كأسًا من الشاي في المقهى، وفتحت باب المنزل وكانت المفاجأة بأن طردًا آخر قد ترك أسفل الباب، فشعرت بنبضات قلبي التي تزايدت على نحو مفاجئ، أظن أنه رجيفًا !

حملتُ الطرد المشابه لسابقه، ولكن حجمه أكبر بقليل، وجدتُ فيه قلمًا أسودًا، ودفترًا لونه أزرقٌ سماويّ، قلّبت صفحات الدفتر، وقد كتب في آخر صفحة منه..

"سيكون كل شيء على ما يرام".

أحسستُ للحظات بأن هذا الخط يشبه خط أبي، ولكنني أهذي الآن على ما أظن، من يفعل هذا بي؟ أمن الصعب أن يكتب ملاحظة بسيطة باسمه على الأقل، أو بالأحرى لماذا يفعل مثل هذه

الأمور، في هذه الأوقات والأيام خصيصًا، أكان قريبًا أم بعيدًا،صديقًا أم عابر سبيل، أم من الممكن أن تكون هذه مزحة من سام كي يخلق جوًا مثيرًا يلهو به مجددًا؟

تخليت عن نفسي فعلًا وبدأت أكلمها بصوت مرتفع كالمجانين، وإنني أخاف أن يلحظني أحد ما وأنا بهذه الحالة.

تركت كل ما بيدي وسرتُ إلى المقهى خاوي اليدين، مرتعشَ الأهداب، ظمآن إلى الحقيقة ، معدتي تؤلمني وأتوسل إليها كي تهدأ فما زال الوقت مبكرًا، ولا يمكنني أن أداري وجعها في العمل والحافلة والمشي طوال اليوم، شربت كأسًا من الشاي المرّ، عادةً اكتسبتها من أبي، فقد كان يحبُ أن يشربه على مهلٍ، ويحدّق في غمغمة الحشود المارة في الشارع وهو منزوٍ في طاولة تطلُّ على نافذة المقهى، وأنا بجانبه أتأمل تأمله وأنظر إلى ما ينظر إليه، فالحواس لم تكن تعني شيئًا كما كان يفعل عقله وقلبه به، أي مهما حاولت مرارًا وتكرارًا أن أقرأ به شيئًا فإني أخفق في كل مرة أجرب بها، وهكذا هو الإنسان عبارة عن صندوق مظلم إن لم يفتح قفله بيديه، ويجعل من يريد أن يأخذ منه، أو أن يُدخل به شيئًا حتى لو نفحة من الهواء، لا يستطيع أي أحد فعل ذلك، فيبقى سره في صدره، والآخرون يظنون بأنهم قد عرفوه، ولكنني أندهش حقًا، حتى أنني في كثير من الأحيان لا أعرفني..

رددتُ التحية وسلّمت باليد على زميلي محمد الذي نتشارك المكتب نفسه، قائلًا : لقد أصبحتُ ألتمس بك نورًا غريبًا يا عليّ، ولكنه يضيء بين الحين والآخر، حتى ضحكاتك قد أثارت عجبي في الأمس، أحببتُ تلك الابتسامة التي تراقصت على شفتيك، وآمل أن لا يكون أمرًا عرضيًا..

ورددت عليه جازمًا : كم أكثرت من الحديث في هذا الصباح، عليَّ فعل الكثير من الأمور اليوم هيّا إلى العمل..

لم أنجز الأعمال التي قد كتبتها في يومياتي ليلة أمس، ولأول مرة أفعل ذلك، ووضبت المكان وهممتُ للخروج كي ألحق بسام، وتناسيتُ حرصي الزائد، وكأنني قد انجرفت للتيار حقًا.

فاهتز الهاتف مجددًا على غير عادته في نفس الموعد من أمس، وصلتني رسالة من شخص مجهول يقول فيها :

"خفف من أحمالك كي تعيش، ولكن لا تتقاعس، حذاري".

أجزمت الآن بأن أحدًا ما يتعقبني ،ولكنني بدأت أشك في الأمر لماذا حينما يصلني طرد أتلقى رسالة بعدها بوقت قصير؟ لماذا قد تباعد احتمال أن يكونا من الشخص نفسه، لماذا لا أشعر بذلك؟

وإن كان هناك احتمال لوجود شخصان، فلماذا قد اختاراني بالذات؟ لماذا يقولان كلامًا معاكسًا؟ أيعرفان بعضهما البعض؟ أمن الممكن حقًا أن يكونا شخصين مختلفين؟ لأحل لغز شيء ما وسأعرف كل شيء على التوالي، ولكن مئات التساؤلات تدورفي رأسي، أود أن أُغرق رأسي في ركبتاي وأن أختبئ ولو لثانية واحدة ،فلقد أصبح ذلك عبئًا عليّ حقًا..

مسّدتُ صدغيّ ومشيت طريقي وصعدت إلى الحافلة وذهبت إلى البئر المعجزة..

لم ألتمس أي تغير كبير، فمنذ زمنٍ طويل لم آتي إلى هنا، كل شيء على حاله، حاولت أن أتسلق الشجرة وأخفقت، فلم أعد ذلك الفتى النحيل الذي لم يترك شجرة في الحيّ إلا وتسلقها، فقد تجاوزت السابعة والعشرين من عمري، وتجاوزتني الكثير من الأمور، حتى أن التفكير بالأمور الأخرى غير هذه المعجزة التي أقف بالقرب منها، أمر مضحك للغاية..

لم أتذوق ثمار هذه الشجرة منذ زمن، قد نبهني أبي منها مرارًا ولكنني لم أكن أكترث فلقد كان يقول لي أهاب أن يحدث لك شيء، فما من أحد في قريتنا يجرُؤ على تناول أي شيء منها، فكل الثمار تنضج وتكبر حتى تذبل وتتساقط على الأرض، ولكنني قد تجرأت أنا وسام وتذوقناها لمرة وحيدة فكان طعمها لا يشبه أي شيء أعرفه لأشبهه، أَو من الممكن لأنني لم أكن على درايةٍ بمذاقِ الكثير من الفاكهة ، كروية، وحجم ثمرتها المتوسط، ولونها الذي يشبه لون الأجرام السماوية، ولمعانها الذي يخطف الأبصار ، ومذاقها الذي يشبه طعمًا لاذعًا وحلوًا في ذات الوقت، يُدخل المرء في حيرة، ولذلك قد أطلق عليها الآخرون باسم " شجرة الشولة".. نسبة إلى النجم اللامع "الشولة"..

لوّح لي سام من بعيد وضحكته الجميلة التي لا تفارقه قد اتضحت ، تعانقنا وجلسنا بالقرب من بعضنا البعض وأسندنا رؤوسنا على تلك الشجرة الضخمة التي قد كبرت كثيرًا، وجعلنا من أمامنا البئر المعجزة الذي كنا نردد عليه أمنياتنا بعشم الطفولة كي تتحقق، ولكن الكلمات والأمنيات لا يمحوها الزمان ولا المكان ،وكل شيء قد بقي في مكانه، فالعمر يمضي، ونحن نجري ونهرم من وراءه..

قال سام بنبرة حالمة: سنعود إلى هنا في المرة القادمة، وسنكون بإذن الله قد حققنا كل ما نرنو إليه

تملّكني شعور بأن عليّ أن أضحك ، ولكنني أضمرته خوفًا من أن أكسر نظرته تلك وأجبته: قد مرّ عشرون عامًا على جملتك هذه، جددّ لنرى.

فضحكَ وضحكتُ معه حتى علت ضحكاتنا وملأت أرجاء المكان، وأخبرته بما حدث معي في هذا اليوم، وبقيَ مشدوهًا لعدة دقائق يفكر ولكن في نهاية الأمر، أدركت بأننا نحومُ حول دائرةٍ صغيرةٍ ، لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

إن أردنا أن نفكر بمنطقية فهما شخصان مختلفان، لأن الأسلوب مختلف والرسائل متضادة، ولكن لماذا؟. (هكذا قال سام جملته بشكل متقطع كالذي يلقي خطابًا)

- رسالة تقول لي تناسى كل شيء وعش حياتك، والآخر يحذرني من التمادي في الراحة، إن نظرنا إلى تلك الجهة وأنا أُأكد على كلامك يا سام.

- كم أنت محظوظ يا علي ،ولكن برأيي تمسك بأصحاب الرسائل، ودعك من أصحاب الطرود ذو الرسائل الملونة والهدايا التي تلفت الأنظار وتجعلك تتأمل بشأنها بعاطفتك..

-اصمت، حبّا بالله يا سام، كيف اختَلقْتَ تلك الجمل والتحليلات فجأةً، ألم تجدْ غيرها؟

-هكذا قد حسِبتها لوهلة، ولكنكَ في نهاية الأمر مخيّر، فكّر جيدًا.

- دعكَ مني الآن، ما رأيكُ أنّ نُجربَ مُجددًا أن نتذوقَ من ثمارِ هذه الشجرة؟

-لا بأس، ففي نهاية الأمر لم نمتْ في المرة الماضية،هيّا بنا.

تسلق سام الشجرة واستطاع الحصول على ثمرتين، ولكنهما لم يكونا ناضجتين، فتذوقتُ إحداهما ولكنني لم أستطع بلعها وتفلتها، وقبل أن نغادر المكان همسنا في البئر المظلم عدّةَ كلماتٍ كي يرتد صداها ويملأ المكان، ورمينا كالأطفال عدة حجرات وصرخنا في داخله سنعود مجددًا..

افترقت طرقاتنا وكل واحد منا ذهب في طريقه إلى منزله، فسام يستيقظ باكرًا كي يلحق بعمله، فهو يعمل في مستشفى الحرية، كمسؤول نظافة، فقد تسربت أحلامه في الحصول على شهادة الثانوية العامة حينما تبدّلت الضحكات إلى أحزان وأصبح حالهم مزريًا جدًا، فاضطر لترك الدراسة والبدء بالعمل، فلا يحل المساء إلا وقد فقد كل قوته، كم من المرات قد عرضتُ عليه أن أساعده في عودته إلى الدراسة والبدء من جديد، ولكنه كان عفيفًا جدًا، وكما يقول دائمًا، فلتتعب الأيدي إن كانت سترتاح القلوب..

(3)

يُهزم المرء حينما ترتدّ عليه كلماته كالصاعقة على حين غفلة ظانًّا بأن فيه نجاةً قد تجعل من حاله أفضل، ولكنه قد ارتدّ إليه في وسط داره ،مربدّ الوجه، ناتئ الظهر، إمعة قد طأطأ رأسه خلف قضبان الخيبة وقلة الحيلة ،حتى أن الحزن قد انتفضَ، وتمدد صوب الجفون، نحو العيون، وثقب قبلة على وجنتيّ ،ولم يكترث بي ، كم كانت أمي فخورة بي، تعلمُ دربي، تعلمُ حُبّي، تسهلّ عليّ كل أمر استصعبه، تفتحُ لي قلبها، تداري وجعي، وأسمع صوتها المبحوح الذي يزيده جمالا، وهي تتوسل الله لي ولأخي، آهٍ يا أمي، كم كنت أتمنى أن نكون سوية نتخطى جراحنا معًا، وأن لا أودعكِ بالدموع، ولكنه القدر يا أمي، فما عساني فاعلة وكل دربي قاحل خاوٍ على عروشه، وأرضي البور بجفائها وشح مائها قد أرغمتني على الفرار بلا أن أنظر خلفي .

قد تكون هذه الرحلة الأولى لي لوحدي، أتخطى بها محطة تلو الأخرى، وتغفو عيناي وفيها ومضة من ومضات الطمأنينة.

أظن أن هنالك مشكلة ما في القطار لأنه قد توقف فجأة، ولكن لا يهم إن تأخرتُ لبضع ساعات. هَا قد انطلقنا مجددًا وأظن بأنه قد تم إصلاح العطل في القطار، كم أن الرياح التي تصفع وجهي تريحني للغاية ،وكم تشعرني بالحرية والحياة الجميلة الواعدة، وكأن لا قوانين ولا أحكام تربطني بهذا العالم ،فقد أدركتُ جيدًا معنى أن تنغلقَ الطرق في وجهك ،وكيف يُطعن المرء في ظهره ،ويحملُ أثقالًا تفوقُ مقدرتِه ، فالصواب أن تنسحبَ من العراك الذي لا ترى به نورًا ، وأن تتمسكَ بحيادتكَ في الوقت الذي سيرغموك به ببلى أو كلا ،سيكون استفهامًا جائرًا يجبروكَ به على النحيبِ والإنطواء طوال عمرك ، فمنذ اليوم الأول الذي حملت فيه حقيبتي، ووضعتها على ظهري، وأنا أكتب كل شيء جديد قد مررت به،الحكايات التي أسمعها، سوء الطعام والشراب، قلة النوم، الاشتياق والندم

في كثير من الأحيان، لم أدوّن شيئًا منذ زمن طويل، ولكنني قد اكتسبت تلك العادة منك يا عليّ، كم أن السفر شاق بلا صاحب..

شردتُ مجددًا في النافذة، ولكن قد أبدت العجوز التي تجلس بالقرب مني رغبتها في التحدث، فكانت متوردة الخدين، جاحظة العينين ،غريبة الأطوار، قائلة : أتشعرين بالبرد؟ وهي تمد بيديها معطفها الذي قد خلعته لتوّها .

فشكرتها وقلت لها كلا، أشكرك جدا.

ولكنها قد أصرت، فاحمرّت وجنتي خجلًا، ووضعته على كتفي.

فقالت: كم يليق بكِ يا عزيزتي.

- هذا من لطفكِ، أشكرك مجددًا.

- لا عليكِ، ليس بشيء مهم، لا أحب التطفل كثيرًا، ولكنني قد التمست الأرق في عينيكِ والتعب في جسدكِ، منذ متى وأنتِ في الطريق؟

-منذ ثلاثة أيام يا خالتي، ولكن لم يتبقى شيئا بإذن الله، وأنتِ؟

- آه يا بنيتي، منذ خمسة أعوام، كم أن الطريق متعب للغاية، عدا عن الانتظار في المحطات، يصبح التعب جميلًا حينما يتغذى الإنسان على ثمار صبره، ولكنني أخشى أن لا أتذوقها وأنا حية، وأموت ومرارة الأيام ما زالت تعشش في حلقي..

-هوّني عليكِ يا خالة، ولكن لماذا تنتقلين من محطة إلى أخرى ؟

- قد سلبوا مني طفلي الذي لم يبلغ تسعة أعوامٍ في الحرب، كم بكيت، وتلوّيت ألمًا إلا أن وردتني أخبارٌ لا أدري إن كانت محض إشاعات أم لا، بأنهم قد أطلقوا سراح الجميع، ولكنني لا أعلم بأي أرض هم، فتركت عشي وبدأت أبحث عن ابني وأنا اتضوّر شوقًا إليه في كل مكان تستطيع قدامي الوصول إليه، أسأل عنه العاملين في كل محطة أصل إليها، وأريهم ما بقي لدّي منه، صورة قد التُقطت له مع مدير مدرسته وهو يستلم شهادة تفوق في الثامنة من عمره، قبل أن يتم القبض عليه.

- أعتذر إليكِ، لا أعرف حقًا ماذا أقول لكِ، بإذن الله ستجدينه، وستضمينه بين حضنكِ وتنتهي سنوات العذاب هذه إن شاء الله .

- لا تعتذري يا صغيرتي، من وضع الداء، وضع الشفاء وأنا أنتظر، فلا خلاف لي مع الإنتظار فلقد تعايشت معه، ولكنني قد تمسكّت بأمل اللقاء في قلبي، والله كفيل بما فيه، ولكن ما اسمكِ يا بنيتي؟

- اسمي مزينة، وأنتِ يا خالتي؟

مدّدتُ يدي ،وفعلتْ الخالة ذلك أيضًا كي نتصافح، ولكن لم تستطع أن تجيب الخالة، لأنه قد حدث انفجار مهيب في القطار، و انحرف عن مساره، ونشب حريق ضخم، وتصاعدت الأدخنة من كل

مكان حتى ذعر الناس، والصراخ قد عمّ المكان، وتتطايرت الأجساد المتمزقة، واصطدم رأسي بزجاج النافذة ،حتى شعرت بحطام الزجاج يتداخل في رأسي، فلم أعد أرى جيدًا ،ولكنني بالكاد قد رفعت يدي، وتحسست الدماء التي على جبهتي ووجنتيّ وجسدي، حاولتُ أن أصرخ طالبة النجدة ولكن قد خرّت قواي، ولم أعد أشعر بشيء ، إلا أن يدي قد ظلت ممسكةً بيد الخالة ،والدماء تغرق كليهما...

(٤)

"كم كان ذلك تباهيًا ، وكم كانت الحياة مضنيةً مرهقة، فقد تسربت كل الضحكات حتى انطفأت، وقد ثملت العيون التي تلوّنت بلون العسل، فلم ينجدها نورها، ولم تعد تتأمل بي، أتُراني قد هُزمْت، أم أنها قد وصلت ولم يستطع الكروان إخباري بذلك، وإنني أعيش على أمل أن تحلّقي في السماء ،وتحييني مجددًا، وتجعلين من حياتي ذات قيمة، كم اشتاق لسماع الأخبار السعيدة التي تخصكِ أولًا، وأتفرغُ للأمور الأخرى لاحقًا، لا تقطعي أملي، فدعيني أجرب حظي ،وإن كان الجميع يعلم بسوءه، ولكن على كل حال لا تطيلي الغياب ".

كان يومًا متعبًا، فلقد أنجزت كل الأعمال المتراكمة التي تكدّست وجلبتها إلى المنزل، فأن تكون مبرمجًا أمر صعب للغاية، ففيه من التركيز والحرص والمتابعة ما يفقدكَ عقلك، فحتى آثار النظارة الطبية قد بقيت على أنفي، وأمست معدتي تؤلمني فلم أتناول شيئًا منذ الصباح، ولكنني في حيرة من أمري فالساعة الآن الثانية صباحًا، والبيض غير ممكن، والجبنة تلتصق في الحلق، ولا أحب الزيت فهو يزيد من ألم معدتي، ولا يوجد لدّي نقانق، ولا أفضّل تناول المعلبات في هذا الوقت، فأحرم من النوم حينها، أظن بأن أفضل خيار هو تناول حبة من الطماطم وبضعُ حبّات من الزيتون وخبز ساخن، كالعادة، أفكر لساعات وأختار الشيء نفسه في النهاية، لا أدري إن كان ذلك الأمر بلاهة أم أنه شيء آخر، ما يزال عقلي عالقًا بالوردة الحمراء وكل الهدايا والرسائل المركنة على الكنبة، أشعر بأنهم على مقربة مني، أم من الممكن في العمل؟ الجيران؟ الأصدقاء؟ ..

عدتُ إلى الحاسوب، فوجدت رسالة جديدة على بريدي الإلكتروني قد كُتب فيها

" يتصارع المرء بكل هيئاته إن وجب، فإما أن ينتصر أو أن ينتصر، فلا توجد خيارات أخرى ".

بما أنني لا أقوم بواجب عسكريّ في حربٍ فعلية، فأي حرب يقصد هذا؟ أم أنه يحاول تحريضي على المدير الذي يتملق ويتراذل في كثير من الأحيان؟ ، أم لأنني قد يَئِست من العيش لوحدي وبدأت أفكر لوهلة أن أترك عملي وبيتنا الذي نقلته إلى مُلكنا حديثًا ومن القروض التي تكدّست على ظهري ،وأهرب من واقعي كما هربت عائلتي؟

تأثير قلة النوم عليّ كتأثير شراب الكحول على الآخرين لأنني بدأت أهذي حقًا ، وأحاول صنع إجابات بشتى الطرق.

غفوت على الكنبة واستيقظت على صوت جرس المنزل، فنهضت متقاعسًا، أفرك بعينيّ ،وكان سام على الباب يحمل بيده هدية، ففغر فاهي وأطلقت ضحكة هستيرية، كنت أعلم أنه أنت يا سام ولكن لم أتوقع أن تكشف لي نفسك بهذه السهولة، فنظر إليّ سام بنظرة تعجبية وقال :ما بك يا رجل، قد وجدت هذا الصندوق أمام منزلك، وإلا فلماذا أجلب لك هدايا أيها الأحمق؟

نظرت إليه مجددًا فعرفت بأنه لا يخدعني، وإلا قد انطلقت منه ابتسامة على الأقل.

وقلت له : تفضل، ولكن ليس بعادتك أن تأتي إليّ منذ الصباح الباكر.

فأجابني : أردت أن نفطر سويًا، أنظر لقد أحضرت معي بعض الأشياء هيّا لنبدأ قبل أن ننطلق على العمل.

من النعاس البغيظ لم ألحظ الطعام الذي يحمله في يده الأخرى، فقلت :سأحضّر كأسين من الشاي، وآتي.

فجلس سام قبالتي على الطاولة يجهز الفطور، وجهزّت الشاي أيضا، وجلسنا متقاربين، فقال وهو يقضم الخبز :أتريد أن تفتح تلك الهدية، أم ماذا؟

فتململت قليلًا، ثم أحضرتها ووضعتها على الطاولة، وبدأت أتناول الطعام متجاهلًا .

ولكنّ سام كان متحمسًا وقال لي: هيّا يا صاح.

ففتحتها ووجدت بداخلها علبة زجاجية مغلقة بداخلها قلب لونه أحمر صغير، وقد عُلّق عليها ملاحظة :

"كسب القلوب أولى من كسب المواقف".

لم يعلّق سام ولو حتى بكلمة واحدة، فابتلعت غضبي في جوفي، وخرجنا من المنزل ولحقنا بالحافلة فسام يستطيع التأخر قليلاً في بعض الأحيان، لأن المستشفى بعيد، ويحتاج الكثير من الوقت للوصول إليه، فلا يعاتبه مديره غالبًا..

وصلتُ إلى مكتبي ولكنني قد وجدت ملاحظة من المدير كتب فيها : في حال وصولك تعال إليّ.

ألقيت عليه التحية ولكنه هزّ برأسه بدلا من أن يردها، ففعل هذه الأمور ليست غريبة عليه، فقد كان كريهًا، منظم حدّ الإعياء، لا يعير أي موظف أدنى اهتمام أو تقدير، لا يستعمل حقه في منح المكافآت ولكن لديه هوسٌ في منح الإنذارات وإلقاء الكلام المبطن المسموم بين الحين والآخر، قلت له :بماذا أردتني؟

فعدّل من جلسته، ووضع بيديه على خديه، وقال :استمع إلي جيدًا يا عليّ، قد حصلنا على ردود إيجابية رائعة حينما عرضنا فكرة تطبيق الهاتف تلك لتطويرها قبل أسبوعين، وقد أصرّ مدير أعمال مالك الشركة على مقابلتك، وإن لم أخبرك بنفسي سيأتي هو خلال يومين ويراك، ولكن بطبيعة الحال أظن أننا سنتفاهم جيدًا، فأنت تعلم يا عليّ بأنه ليس من المعقول أن تكبر أنت لوحدك، ففي النهاية لم تكن الوحيد الذي قد قد ساهم في تطوير تلك الفكرة.

حاولت أن آخذ نفسًا عميقًا قبل أن ألتهمه من شدة غضبي فرفعت صوتي معترضًا : كيف لك أن تنكر جهودي وتعبي خلال عام كامل، أتظن بأن كلامك هذا سيجعلني أرضخ لقوانينك وأحكامك، سأذهب وأقابله فهذا حقي أنا.

فقام ومشى إلى القرب مني، حتى التصق بياقتي ، فقال : أتظن بأنني سأسمح لك؟ وبدأ يقهقهُ بأعلى صوته كي يستفزني.

فرفعت يده عني وقلت له : لا يمكنك سلب حقي عنوة، فأنا من طوّر هذا العمل، ولم يقم أي شخص بمعاونتي على ذلك، أفهم جيدًا كم أنك شخص متجبر وظالم، ولكن ما مصلحتك من هذا الأمر لا أفهم حقًا!

فضحك مجددا وقال أيها الأحمق من يستطيع أن يقابل هذا الشخص يكون قد صعد أكثر من ثلاثة أرباع سلم طموحاته، بتوقيعٍ واحد يصبح لديك كرسيّ جديد ومكتب كبير لوحدك في أضخم شركة للبرمجة في هذه البلاد، ولكن للأسف سيكون هذا من نصيبي.

لم أستطع أن أحتمل كراهته تلك ، وأخبرته بأنه لا يستطيع فعل ذلك حتى وإن لم أقابل ذلك الشخص، لأن اسمي موثّق على كل الملفات، ولكنه قد قال بأن تزوير التواقيع أفضل مهمة يقوم بها، فرجع إلى مكتبه وأخرج شيگًا وقال موجها إياه بالقرب مني : مبلغ كبير يغنيك عن كل ذلك وأضمن لك بتجديد عقدك هنا في العام القادم، فأغضبني حتى فقدت صوابي، حاولت أن أهدّأ من روعي وأن أتوصل إلى حلٍ ما يرضينا سوية ، ولكنه رفضَ فقال ساخرًا ومن أنت أيها الدنيءُ لتساومني ؟

كان على الطاولة مزهرية ممتلئة بالورود المجففة، فهزمني غضبي، وعُميَّ بصري حتى ضربته بالمزهرية خلف رأسه فتتطايرت شظايا الزجاج، وصرخ بأعلى صوته متأوهًا ،وتناثرت الدماء حتى أنها قد أغرقت وجهه وملابسه وخرّ على الأرض فاقدًا وعيه، ولم أعي ما الذي قد حصل، ولم أعرف ما الذي عليّ فعله، فهرع الموظفون من كل المكاتب نحو الصوت، وما زالت المزهرية من هول المنظر بيديّ، فعندما رأيت الدماء قد تشنجت يداي، واصفرّ وجهي وبدأت أرتجف، وشعرت بأنني سأفقد الوعي من الرّهاب الذي لا يفتك مني عندما امتلئت نظّارتي بالدماء، قد اتصل الموظفون بالشرطة، وحاولوا إيقاظ المدير ولكن بلا جدوى ، ووقف زميلي محمد على رأسي محاولًا أخذ إي

إجابة من آلاف التساؤولات التي تتطايرت عليّ منذ وقوع الحادث، ولكنني لم أستطع أن أنبس ببنت شَفَةٍ، وتخدّر لساني، حتى ألقيَ القبض عليّ، وجرِرتٌ إلى سيارة الشرطة مكبلًا بالأصفاد، والجميع ينظر ببلاهة متسائلين ما الذي يحدث ؟

لا أدري إن كان المدير حيًا أم ميتًا ولا أعلم ما الذي سيحدث بي، قد تظللت رؤيتي، ولا أرى إلا خيالات من الدماء التي قد أغرقت أرض المكتب وقد تناثر رذاذها على ملابسي..

سارت سيارة الشرطة وتبعتها سيارة الإسعاف التي يتواجد بها المدير بسرعة كبيرة، حاولت أن أنظر إلى الخلف نحو مصدر الصوت ولكنّ الشرطي قد أمرني بالجلوس الجيد وإلا...... ، حتى وصلنا إلى قسم الشرطة لأخذ إفادتي فتملّكني الصمت وأحكم قبضته على فمي فلم أستطع قول أي شيء، وكانت أكبر ردة فعلٍ لي بأن حاولت نزع قميصي الملطخ بالدماء، فصرخ المحقق في وجهي وقال : ستفعل ذلك لاحقًا ولكن الآن أجبني..

وبدأت أسمع صوت أمي المنخفض، وهي تربتُ على كتفيّ وتقول لي: لا تخف يا بني، قد نزف اصبعك فقط وكل شيء على ما يرام، وتبتسم في وجهي وهي تنظر إليّ بعينين محمرتين حزنًا وتخبرني بأنني سأتخلص من فوبيا الدماء قريبًا، فابتسمتُ حتى ظن المحقق أنّني أسخر منه، فاستشاط غضبًا وركل الكرسيّ بقدمه ووجه أمرًا إلى الحارس بأخذي إلى غرفة أخرى.

فكانت الغرفةُ فارغة، مظلمة، حارة جدًا، ليس فيها أيّ مدخل للضوء، بداخلها طاولة صغيرة مهترئة وكرسيّ متآكل، فتهالكت على الكرسي من شدة تعبي، وخلعت نظارتي وبدأت أفرك بعينيّ الذابلتين، وكأن فيهما من البكاء ما لا يصلح أن ينزلق على خديّ، فأنحصرُ بداخلهما، كما فعل الكلام عندي، تقيّد واحتُبس في داخلي، أرى خيالات من منظر المدير فأرجع ظهري إلى الوراء خيبة، وما إلى أن أتذكر كلامه المتبجح حتى تختنق أنفاسي، فطرقت بيديّ على الطاولة حتى آلمتني، ولكن الألم كان يتضاعف في صدري، فدخل المحقق مجددًا بعد أن هدّأ من غضبه الحراس، وقال لي :أتريد محاميًا، ولهذا تلتزم الصمت؟

فلم أجب بشيء وبقيت صامتًا أتأمل الفراغ والظلمة ،فتابع كلامه : الصمت لا ينفعك في نهاية الأمر!

فحاولت أن أنطق ببعض الكلمات فطلبت أن أجري اتصالا سريعًا بِ سام. ..

(٥)

وجدتُ نفسي عالقًا في الأزمة المرورية، بعد أن ودّعتُ عليًّا صباحًا ،وبذلك قد تأخرتُ على الحضور مبكرًا إلى العمل، أفضّل دومًا أن أتواجد قبل العمال، فما يقع على عاتقهم، يقع عليّ أضعافه، من المتابعة وتلقي الأوامر، عدا عن التنبيهات المستمرة من المسؤول الرئيسي، قد بدأت كعاملٍ للنظافة في مستشفى الحرية، ولكن الآن في مرحلة أفضل قليلًا من ناحية الحضور والتعب الجسدي، قد حدثت ضجة كبيرة منذ وصولي، يقال بأنه تم نقل المصابين الناجين من حادث تفجير القطار من مستشفى إلى آخر حتى وصل الحال لتأمينهم في مستشفى الحرية، فمصابهم جلل، وأدعُ الله أن يتلطف بحالهم، ويشفيهم ويردهم إلى أهلهم سالمين معافين.

اهتز الهاتف في جيبي، ففكرت أن لا أجيب إن لم يكن من العائلة، لأنني بطبيعة الحال لا أتلقى أي مكالمات وأنا في العمل، فسحبتُ الهاتفَ، فكان رقمًا غير مسجل على هاتفي فأجبت، وسمعتُ صوتَ عليّ الحزين من وراء سماعة الهاتف، فانتفضَ جسدي وهلعت ،فسألته ما الذي يحصل؟ أين أنت؟ لماذا صوتك هكذا؟ أأنتَ بخير؟ لا أظن بأنني قد تركتُ له وقتًا للإجابة على كل تلك الأسئلة، فأجاب بصوتٍ مقتبضٍ :أوجد لي محاميًا يا سام، فأنا محتجز في قسم شرطة س. أ.

لم أستطع أن أفهم أي شيء، فجلست على الأرض من هول المفاجأة، وأفكر بكل الاحتمالات الواردة التي من الممكن أن تكون قد حصلت وسببت بدخوله إلى السجن، يريد محاميًا؟ فالأمر أكبر مما أظن ،أشعر بالسوء في داخلي، فتركت كل أعمالي على حالها، وهرعت إلي محامٍ له سمعة حسنة، فوصلنا إلى قسم الشرطة وبعد عناءٍ طويلٍ، قد تسنت لي لحظة أراه بها فقد كان شخصًا آخر لم أره بهذه الحال من قبل، والدماء متناثرة على قميصه، ووجهه مصفر، ويداه ترتجفان، فأصابني رجيفًا حتى آلمني قلبي ولم أعرف ما الذي أقوله، لم أستطع أن أسأله آلاف الأسئلة التي تدور في عقلي، فحاله لا يُمكّنُه من الإجابة على أي شيء، ولكنني قد شددّتُ على يديه وتملّصتُ من نظرته البائسة حتى لا أشعره بالسوء أكثر، لأنني أعلم بأن عليّ لديه رهاب شديد من الدماء منذ صغره، ووعدته بأنني سأخرجه مهما كلفني الأمر ومهما كان، فقال وهو ممسكًا بيديّ :أثق بك.

قد دخل المحامي وعليَ في الغرفة وجلسا لأكثر من ساعة، فحينما خرج المحامي هرعت إليه كي أستوعب ما الذي يحصل؟ فأخبرني بكل شيء، فشهقت، وسقطت تلك الدموع الحارة على وجنتيّ كأول مرة بعد هذا العمر، تذكرتُ يوم قال لي عليّ: سنقطف ثمار هذه الشجرة كلانا وسنأكل منها عنادًا بالناس، ولن نموت من أكلها، ولكن سنموت فضولًا إن لم نعاود أكلها، فبكيت مجدَّدا ولم أرفع يديّ حتى لأمسح دموعي، وتذكرت كيف كان يطالع بعينيه نظراتي، يبحث عن طريق الأمان الذي قد كوّناه بيننا ،ولكنّ الحقيقة بأن لا أحد يستطيع أن ينقذك دائمًا من صراعات الحياة، فتوسلتُ للمحاميَ أن لا يترك قضيتهُ أبدًا، وأخبرته بأننا سنذهب لزيارة مدير عمل عليّ، فلقد سمعتُ أنه بحالةٍ جيدةٍ، وسيتم تخريجه من المشفى في صباح الغد. .

(6)

تم توقيفي في السجن حتى وقت محاكمتي، أدخلني الحراس إلى غرفة أوسع، فيها العديد من الأسرّة ذات الطابقين، بألحفة ووسائد قذرة،وروائحتها نتنة ،يتناوب عليها السجناء، جلستُ على طرف السرير، ولم أستطع أن أنظر إلي أي شيء آخر،وخلعتُ قميصي المتسخ بالدماء، حتى زال قلقي ، وأطلتُ النظر في سقف الغرفة، أفكر ما الذي سيحصل؟ ما نتيجة هذا الأمر؟ قد تم رفع شكوى ضدي بتهمة الشروع بالقتل العمد، وإنها لتهمة بشعة، كل ما في الأمر أنني أردت اسكاته، أن لا يحاول أن يتجبر عليَّ أكثر، واتضح أن الانتصار يحدث بالخسارة أحيانًا، قد انتصر عليّ حينما قد ضربته، وسيلعب معي بأوراقٍ مكشوفة، لا أدري ما الذي سأفعله؟ عائلتي ! من الذي سيرسل لهم الأموال؟ حياتي؟ عملي؟ كل شيء ذهب هباءً منثورًا !

"وإنها لهذه الليلة الأولى التي لا أبيتُ فيها في منزلي، وأنا أتأملُ سقفَ هذه الغرفة متأملًا وصولكِ، وأهابُ أن يكون هذا الأمر معيقًا لكِ، فالسجنُ قد يطولُ كثيرًا، أو تستطيعينَ الخروج من قضبان السجن لوحدكِ لإكمال الطريق الذي بدأنا فيه سوية، وإنّي واللهِ لخائف من أن يتردد العزم في صدركِ، وتنطوين على نفسكِ، وتتخليّنَ عن الأهداف التي قد أحدثت فارقًا في حياتي. "

اقترب مني رجل أظن أنه بالأربعين من عمره، سمين، له شاربان أسودان طويلان، موجهًا سؤاله إليّ: سرقة؟ مخدرات؟ جريمة قتل؟ أم أنك أيها الخبيث... ولم يكمل كلامه لأنه قد أصبح يضحك بصوت مرتفع، ويقول الشبان دائما ما تكون قضاياهم مثيرة للغاية، فنظرت إليه بنظرة حادة، فاعتدل في جلسته، وهذّب من طريقة كلامه وقال : لا تكترث فسنصبح أصدقاء جيدين إن شاء الله.

فقلت له : لا أريد أن أتكلم، فأنا متعب وأريد أن أنام.

.النوم ليس بالشيء الجيد هنا، فأنا مثلا لا أستطيع النوم منذ أن دخلت إلى السجن!

ففهمت أنه لن يبتعد عني إلا أن بعد أن يحقق معي ويعرف قصتي، فجلست في مقابلته، وقلت له :منذ متى وأنت هنا؟

فابتلع ريقه وقال: منذ عشرة أعوام، أجل منذ عشرة أعوام وأنا لا أستطيع أن أتذوق طعم النوم، قد سُلبت مني حياتي حينما ظننت بأنني بطلٌ أعاد السمعة الحسنة إلى عائلته..

لم أفهم ما الذي يقصده، أو للحظات ظننت بأنني قد فهمت ما الذي يصبو إليه فقلت له : أخبرني ما الذي حدث..

فقال : اسمع يا صديقي فأنا الذي قد ظننت بأنه سيوضع اسمي في لوحة الشرف، وسأحيي مجد العائلة، حينما قتلت اختي باسم قضية شرف ! ولكنني أراها كل يوم في حلمي، مرتدية لباسًا أبيضًا، وتقول لي والدموع في عينيها، إنني بريئة يا أخي، وستدفع ثمن جهلك عاجلا أم آجلا.

لا أفهم كيف حدث ذلك الأمر، كنت أعمل موظفًا في دائرة حكومية، متزوج حديثًا، ولديّ ثلاث أخوات، فأبي قد توفاه الله منذ زمن، وأمي قد أصيبت بجلطة حزنًا على أبي، كنت أعمل ولكنّ دَخلي لا يكفي لأتمم واجبات عائلتي، إلا أنني قد كنت جشعًا، فظًا ،أتمسّك بأسوء العادات في مجتمعنا، فلم أقبل بتدريس أخواتي في الجامعات، ورفضت تمامًا فكرة العمل، فأنا فقط من يتوجب عليه فعل ذلك، ففي صباح ذلك اليوم المشؤوم قد تلقيت اتصالا من شخص لا أعرفه يقول لي كلامًا بذيئًا عن أختي الوسطى، فاستشطت غضبًا، وتركتُ كل شيء وهرعت إلى المنزل وبالفعل لم أجد أختي، وضربت أخواتي الأخريات ولكنهما من الخوف لم يستطعن قول أي شيء، ولكن أمي قد كانت تريد قول شيئًا، تجاهد نفسها كي تتحرك والدموع تملأ وجهها، كانت تريد أن أتوقف وابتعدت عن أخواتي، فعادت أختي بعد ساعات، فبدأت أضربها حتى أنها لم تعد تعرف أين ستكون الضربة الأخرى، وهي تستنجد وتصرخ، وكنت أصرخ عليها :أين كنتِ؟ وتجيب بنفس الإجابة: بالعمل، وأي عمل ذلك، وأخواتي يبكين ويقلن منذ شهر قد بدأت بالعمل في مخيطة قريبة من المنزل في غيابي، لأنني كنت أرفض الأمر، تستروا عليها ولكنها كانت قوية بما فيه الكفاية، لترفض قراراتي وتخرج لتعمل وتساعد في المنزل، ولكنني لم أصدق كلامهُن، وقلت لماذا أسمع كلامًا بذيئًا كهذا عنكِ، لا أصدقك أبدا، لا أصدقك! وهي تبكي وتشدُّ على يديّ ابتعد عن عنقي، ودخلتُ في نوبة غضب حتى عماني جشعي ولم أترك يداي حتى خرّت أختي على الأرض، أقسم أنني لم أُرد أن أقتلها، كنت غاضبًا منها جدًا، ولكنني أقسم لكَ مرّة أخرى لم أكن أريد حصول ذلك، فماتت بين يديّ، وأخواتي الأخريات وزوجتي ينتحبون ويصرخون ويحاولون أن يفعلوا شيئًا علّها تستيقظ ولكنني لا أستطيع أن أصف لك شعوري وانكساري وحماقتي وغروري وجشعي، فسلمت نفسي للشرطة ولم أستطع أن أرى أمي أبدًا، منذ تلك الحادثة و قد علمت بأنها توفيت قبل عامين بلا أن أراها، بلا أن أودعها، بلا أن تسامحني !

وعندما عرفت الحقيقة تكورّت على نفسي، انطويت أبكي طيلة تلك السنين علّها تسامحني وعلّ الله يغفر لي.

فغص الرجل في بكاءٍ مرير، وكأن الأمر قد حدث البارحة، لم أستطع أن أفعل أي شيء سوى مواساته وأن يقرأ القرآن ويتصدق عنها ويدعوا الله كل يوم أن يغفر له..

تبدأ الخسارة حينما يظن الإنسان بأنه دائمًا على صواب، وأن كل شيء يحدث خارج أفكاره ومبادئه هو أمر غير معقول وخاطئ ومحظور.

حتى أن الحزن والبكاء والانطواء والندم لا يعيد أي شيء كما السابق، فالشيء الذي ينكسر لا يقوّم ولا يلتحم بعد ذلك..

فخرج صوت هاتف، فقال قد أحضرتهُ خفيةً كي أطمئنَ على عائلتي، فوصلته رسالة، فقرأها وبدت عليه علامات الحيرة، فصرخ بصوت عالٍ : أيوجد أحد اسمه عليّ هنا؟ فنظرت إليه بقلق وقلت له : يا رجل أنا عليّ، فقال لي فهذه الرسالة لك إذن :

"إلى عليّ ، قد بدأنا للتو بعد، ولكن إياك أن تستسلم"!.

لأكون صادقًا، لم يدهشني محتوى الرسالة بقدر ما أدهشني وصولها على هاتف هذا الرجل، ثمة أصل لهذا الأمر ولكنني لا أعرف شيئًا، فبطبيعة الحال قد أفرغت غضبي في ذلك القذر، ولم يبقى لدي أي شيء لأفعله هنا، سوى محاولة النوم مع صوت شخير الكثير من الرجال، فكلما أغمضت عينيّ رأيت المدير بالقرب مني ينزف دمًا من كل مكان ألمسه، فتمتلأ يديّ بالدماء، وابتعد عنه راكضًا ولا أستطيع أن أنظر خلفي، الهرب إلى الأبد بلا وجهة محددة وأستيقظ في فزع ولا أجد حولي غير الأسرّة القذرة، والجدران المهترئة، والرائحة النتنة ، والسقف الممتلئ بالحشرات التي تنقض على جسد الواحد منا حتى تمتص دماءه..

نظرت إلى ساعتي، فعلمت أن وقت الفجر قد حلّ، فتوضأت ووجدت مكانًا لأضع فيه سجادة الصلاة، فكبّرت حتى كبّر كل عضو في جسدي، وتلوت مما أحفظ من كتاب الله، وركعت حتى شعرت بأن الثقل يتساقط من على ظهري، فسجدت ورددت سبحان ربي الأعلى، وفي ذلك الحين قد ارتاح قلبي، ودعوت الله بأبسط الكلمات التي قد انزلقت من فمي، وبدموعي التي انهمرت على وجنتيّ، فليس باستطاعتي أن أرتب دعائي، فالله يعلم ما بي، فاللهم قلبي..

قد استيقظ السجناء الآخرين، وبدأ جزء منهم بالتدخين ومنهم من بدأوا بتحضير طعام الفطور، فعلى ما أظن قد تقاسموا ذلك بينهم على مجموعات، لتحضير الطعام وغسل الصحون والملابس وتنظيف المكان، فالخدمات سيئة للغاية، فلم أحتك بأي شخص في ذلك الصباح، وجلست جانبًا ولم أتناول أي شيء، وخلال ذلك الوقت جاء الشرطي وقال بصوت مرتفع : علي جاد الحق.

نهضت وذهبت باتجاهه ،فقيّدني مجددًا وقال: لقد تم تحويل مكالمة هاتفية لك، لديك خمسة دقائق، فكان سام على الهاتف ينتظرني لأجيب، فسألني مئة سؤال خلال دقيقة واحدة، وقال لي : أخاف عليك كثيرًا يا علي، أجبني بصدق أأنت على ما يرام؟

فأجبت بصوت خافت : أجل بخير، لا تقلق.

- ذهبت إلى المدير كي أطمئن عليه، وإذ به بقوة جيدة، ولكنه لم يقبل أن أفاوضه على أي شيء، وقد خابت محاولات المحاميّ، في رفع التهمة التي قد رفعها عليك، يا له من شخص فظ وقاسٍ، ولكنني لن أترك الأمر، فأنا الآن في منزلك ماذا تريد مني أن أحضر لك من الثياب؟

-أريد قميصين وبنطالًا وحذاء، وفرشاة الأسنان والمعجون، ومقص الأظافر،وملابس داخلية إن استطعت.

.ألا تريد شيئًا آخرا؟

. لا يخطر في ذهني أي شيء، أريد أن تتحدث مع زميلي محمد، إنه شخص طيب، وصديق جيد، أظن أنه سيساعدني في إقناع المدير على الأقل..

فصمت سام ولم يقل شيئًا..

-ما بك يا سام؟

فرد عليّ بصوت حزين قائلا: لقد تكلمت معه البارحة صباحًا كي اصطحبه معي إلى المدير ولكنه قد اصفرّ وجهه، وقال: لا أستطيع أن أقف إلى جانب علي الآن، فالمدير على حق ! فكيف يفعل ذلك به؟ كيف استطاع أن يحاول قتله بدمٍ بارد هكذا؟ فبدأ يبرر ويتكلم بسخافة فعرفت أنه خائف أو قد تم تحريضه.

فلم أعرف ما الذي أقوله، فكان محمد الشخص الوحيد الذي أثق فيه في العمل وآسفاه، فسمعت صوت تحطيم من منزلي، فصرخت ما الذي يحدث يا سام؟

فكان سام مذعورًا فقال وهو يلهث: قد سقطت فجأة إحدى كؤوسك الفارغة من الطاولة فجأة، وتناثر حطامها في كل مكان.

فقلت له: ليس بالشيء المهم، لا تكترث، خطرت في ذهني فكرة، أظن بأن أيسر البقال في حيّنا يستطيع مساعدتنا، فلديه معارف للمدير.

فقال سام وفي صوته كان اليأس واضحًا: تذكرت ذلك الأمر وأنا في طريقي لمنزلك، ولكنه قد كان يبحث عن ذريعة يستند عليها، وفهمت من حديثه أن خائف من أن يخسر معارفه بشأن هذا الأمر..

فصدر الصوت مرة أخرى فصرخ سام هذه المرة مذعورًا: سقط كأس آخر على الأرض وكأن قنبلة قد انفجرت وتتطايرت شظاياها في كل مكان.

ابتلعت دهشتي في جوفي وصمتُ، فودعت سامًا، وسحب الشرطيّ الهاتف من يدي.

(7)

عندما أعادني الشرطي إلى الزنزانة، جلستُ منزويًا أتحاشى النظر إلى الناس، وكأنّ بي مرض معدٍ أخاف أن ينتقل إليهم، الضجيج هنا ينتقل في كل مراحله من الصباح الباكر حتى حلول المساء، أغمضُ عينيّ تارةً، وأجول ببصري أرجاء المكان تارة أخرى، أداعب ذلك الحس البائس المنطوي على نفسه، ليخرج من صومعته ويتقبل ما جرى، ويرى بأم عينه كم أن الحياة أفظع مما يظن، وكم أن أحلامه التي يعيش في داخلها صعبة المنال، في ذلك الحين اقترب مني سجين لديه نظرات حادة، وجسد لاعب يتفاخر به وهو يمشي بين سرير وآخر، في زنزانة مؤصدة، مادًا إليّ يده التي يحمل بها طردًا أحمرًا صغيرًا، قلت له: ما هذا؟ فرفع لي حاجبيه محدقا بي، ففهمت بأنه لا يعلم شيئًا!

حينما فتحت الطرد وجدت فيه معطفًا منقوشا عليه جملة تلعثمت في قرائتها " لا تترك نفسك لمضارب الرياح، دثّرها واطمئن"..

أأستعد لحدوث كارثة؟ أم أطمئن؟ لأي منهما أستجيب؟ لرسالة الأمس؟ أم للطرد الآن!

أظن بأن عليّ أن أترك الماء تجري ، فعندما عاندتها قد غرقت بها، فلا مزيد من الدموع البائسة والتوسل المذل الذي يجعل من الحياة أصعب عيشًا..

صرخ الشرطي بأنه لديّ زيارة، ظننته في بداية الأمر سامًا؛ لأنه الشخص الوحيد الذي يكترث لأمري، أو بالأحرى من تبقى لدّي حينما هاجَرت عائلتي، وفقدت أبي في حادث سير مؤسف، دخل المدير الغرفة بهندامه الأنيق، وبقامته الفارعة، يبتسمُ بخبثٍ وكأنه قد أعلن انتصاره، ولكنني لم أفهم معنى زيارته، أتراه قد تغير حاله حينما ضُرب على رأسه، أم أنه جاء للمساومة، فحينما اقترب أمسك بذقني وشدّني إليه قائلا : أظن أنك استمتعت بما يكفي هنا، بعد أن تماديت وضربتني أيها الأحمق.

لوهلةٍ كدت أن أعتذر منه علّه يسامحني وتستقيم الأمور، ولكن قد تَفلّت ذلك من فمي، وحدّقت في عينيه قائلا : ما الذي جاء بكَ إلى هنا؟

فدفعته حتى تركني فردَّ قائلا : سأخرجك من هنا، ولكن لديّ عدّة شروط..

للتو أدركت بأن مكيدة قد حيكت لي، لا أستطيع تخطيّها بالدمع، ولا حتى بالقتال إن أُكرهت على ذلك، فرفعتِ له يدي متسائلا عن شروطه؟

فهمسَ في أذني بأنني سأوقع على جميع الأوراق بأنه المساهم الوحيد في تطوير تلك الأفكار ، وأنني لم أساهم في أي شيء، وأن العمل الذي قد كلّفني عامًا من الجهد سينسب إليه.. وأيضًا لن أستطيع العودة إلى شركته والعمل بها..

وهو بذلك سيرفع شكوته عني، ويخرجني من السجن فورًا، لأن لديه صلة قوية برئيس قسم الشرطة..

لم يكن لدّي أي خيار آخر سوى القبول والإذعان، أي أنه ليس باستطاعتي الرفض بحقيقة الأمر، وادلهمت سمائي التي أحبها وأطوق إليها، وظلت أمنياتي في تطوير السلك المهني لدّي في الخلف، حتى أن وجود وظيفة أخرى سيكلفني وقتًا كبيرًا فبطبيعة الحال البطالة قد تفشّت في مدينتنا، فتم تخريجي خلال ساعة واحدة فقط، بعد أن أمضيت على جميع الوثائق، وعلى استقالتي من العمل..

عدتُ أجر أذيال الخيبة محملًا بأثقال تفوقُ قدرتي ، وكان الحزن يتسرب من بين أضلعي، فعدم النوم طوال ثلاثة أيام قد أرهق جسدي ، فتحت باب المنزل متقاعسًا ، فوجدتُ بأن سامًا قد أعاد كل شيء مكانه، ونظّف أرضية المنزل من الزجاج المحطّم، ولكنني قد اتصلت به عدة مرات ولم يجيب !

يا إلهي أين اختفى ذلك الرجل؟

...

(8)

استيقظتُ متثاقلةً وكأنّ حملًا ثقيلًا يجثمُ على صدري، وجدتُ نفسي في غرفة أضواؤها خافتة، فتحسستُ رأسي وإذ بالضماد يلتف حوله، وتأملت السرير الذي استلقي عليه، والمصل الموصول في وريد يدي، والدهشة قد ملأت تعابير وجهي ولكنني لم أستطع أن أنبس بأي كلمة، والكلال قد تمكن مني، حاولت أن أتذكر ما الذي حدث لي حتى وصلت إلى هذه الحال، تشكلت أمامي خيالات امرأة كبيرة تشد على يديّ الداميتين، وتخبرني بأنني سأصبح على ما يرام، فدمعت عيناىّ، وناديتها كثيرًا ولكنها لا تستجيب، ولا أسمع سوى صدى صوتي.

فدخلت الغرفة امرأة ترتدي رداءً أبيضًا، بهيّة الملامح، و لديها ابتسامة ساحرة، اقتربت مني وقالت : لقد استيقظتِ أخيرًا، كيف حالك يا عزيزتي؟

حاولت أن أرفع رأسي، ولكنني قد تأوهت متألمة، فدنت مني وأخبرتني بأنني قد خضعت لعملية قد استغرقت وقتًا طويلاً، وأنني بحاجة للراحة، وقبل أن تخرج من الغرفة أجرت لي عدّة فحوصات سريعة، فابتسمت وأخبرتني بأن كل شيء على ما يرام، فقلت لها: منذ متى وأنا هنا؟

فقالت : أسبوعين تقريبا..

أردت أن أسألها عمّا يدور في خلدي، ولكنني كنت خائفة جدًا، فعدم معرفتي أفضل من أن أعيش ألمًا آخر، تجاوزت الأمر وسألتها : ما الذي حصل لي فعلا ! أكان أحد ما بجانبي ؟

طأطأت رأسها وقالت : متأسفة جدًا عما سأقوله لكِ الآن! ولكنكِ يا عزيزتي كنتِ الناجية الوحيدة من حادثة القطار..

بسلامة رأسكِ مجددًا ..

فانهمرت العَبرات على وجهي، وشعرت بخدش في روحي ينزف بلا توقف، فالتفت إلى الجهة الأخرى، وغصصتُ في بكاء مرير بعدها، أتذوق مرارتين معًا، مرارة الألم الذي ألَمّ بي، ومرارة الوحدة بطعمهما اللاذع، كان أمرًا سيئًا للغاية..!

أتكوّر على نفسي واهية لاغبة، وكل ما بي من ألم ينشطر لينفتح ألم تلو الآخر، ودموعي لا تفارق وجنتي، لا أنكر أنني قد اعتدتُ على ذلك، ولكن الكلمات لم تعتد عليّ بعد، فكم أصبحت عديمة حيلة، أتذبذبُ بين رأي وآخر، ولا أفلح بأي شيء، ولكن ما حصل لي كان بالأصل وجهتي أنا وما قدّر لي أن أعيشه..

أشعر بأن رأسي مشوش جدًا، ولا أستطيع أن أتذكر أي شيء مما حصل لي تمامًا، سوى خيالاتٍ لا توحي إليّ شيئًا، فعرفت حينها بأنهم قد أطلقوا عليّ اسم فتاة القطار، وكم كان اسمًا غريبًا ،يدفعني للتساؤل على الدوام.. ولكن بطبيعة الحال لا أستطيع أن أخبرَ أمي الرؤوم لأنها بعيدة جدًا، وهي تظن الآن بأنني قد وصلت منذ زمن، ولا أقوى على أن أخبر من بالمستشفى أن لديّ أخ، فلا أريد أن أكون عقبة في طريقِه من الآن، سأنتظر بفارغ الصبر كي أتعافى وأنطلق مجددًا..

(9)

فقدت شهيتي منذ أن تم زجي في السجن ،ولم أستطع أن أتناول شيئًا في هذا الصباح، فكرت في سام الذي لم يجب على أي من الاتصالات والرسائل، أظن أنه قد انشغل بأمر ما في عمله، فقررت أن أذهب إلى منزله في المساء وأطمئن عليه، وسيتفاجىء حتمًا برؤيتي.

تأملت كؤوسيَّ الفارغة ، ولمست إحداهما ورفعته بيدي، وكأن صوتًا في داخلي يجبرني على فعل ذلك، وددت أن أكون قادرًا على مسحه، وإعطائه منظرًا آخر، أن أرتب بقية الكؤوس كما أشاء، ولكنني لم أقوى على فعل ذلك، وأعدت الكأس لمكانه، ولم أكترث لما قد تحطم منهم في المرة الماضية، لأنها لم تكن هذه المرة الأولى، فلقد حدث ذلك قبل سبع سنوات أيضًا مرتين متتاليتين.

للمرة الأولى منذ أعوام أمضي يوم كاملًا في المنزل بلا أن أجلس لعدة ساعات على جهاز الحاسوب، فلم أعد بحاجة لذلك بعد أن طردت من العمل، ولم يتوقف الأمر على طردي ، حتى أنه قد سرق جهدي وأنا أقف مكتوف الأيدي متفرجًا، خائبًا، ارتديت قميصًا أزرقًا، وسروالًا أسودًا ، وصففتُ شعري القصير، وحلقت لحيتي، وعزمت أن أغادر المنزل قبل أن أجنّ من غضبي وقلة حيلتي، فمنذ أن رحلوا لم يهتم أحد لأمري، ولم يتقفى أحدٌ أخباري، ولم أسمع في المنزل صوت طرب، ولم تقم فيه وليمة غداء أو مأدبة عشاء، ولم يدخله طفل صغير، يلهو بين أسرتنا، يضحك تارة ويبكي تارة أخرى، يلعب ويتعلق في عنقي، لقد مرّ وقت طويل حتى أنني لم أنتبه على ذلك بسبب انشغالي بالدراسة والعمل ، وكان كل ما مرّ هو عمري ، فتحت باب المنزل ووجدت طردًا قد ركنه أحدهم أمام الباب، لم أفتعل ردة فعل كبيرة ، ولكنني في كل مرة أزداد فضولًا، انحنيت وأمسكت الطرد، كان خفيفًا جدًا، أزلت التغليف الملون، فوجدتُ نصف تفاحة كبيرة مغلفة، وبجانبها قد كتبت ملاحظة " يفقد المرء في فترة من فترات حياته ، نورًا لامعًا ، ولكنه مع ذلك يتعايش مع عتمته ونقصه، كمثل تفاحة قد قضمت، ولكنها قد بقيت صالحة للأكل لفترة أطول حينما قد غُلّفت" ..

لم أفهم شيئا مما كتب، فمسكت التفاحة وألقيتها في سلة النفايات وخرجت..

رياح أيلول تلفح وجهي، وبرودة ليله تتوغل في داخلي، فيباغتني على حين غرّة ذاك الشعور الهادئ، المسالم، الذي تتطاير فيه أفكاري وأحلامي وأمنياتي كما تتطاير أوراق الأشجار على حافة الرصيف مصطدمة بتلك الكتل الصلبة التي تعيقها، فإما أن تدهسها أقدام العابرين وتعلق بأحذيتهم ،وإما أن تتعفن وحيدة مصفرّة، ما كنت لأضع أي أصفاد على قلبي، وما كنتَ لأنجرف يومًا لتيار لا يروقني، ولكنني قد تمسكّت بطموحاتي وأمنياتي، وبشراهة دموعي، وبالتفكير المزمن الذي لطالما فتّكني، وما

زلت أحب الشتاء وأيلول والمطر ورفقة الصحاب وبراءة الأطفال، ومداعبة الرياح، والمسارات الطويلة، والأضواء الخافتة...

فكانت تقول جدتي "أيلول ذيله مبلول"، أي أن أمطار الخير تتساقط في نهايات شهر أيلول، فكان التساقط نهاية مؤقتة، وكل شيء قد بدأ للتو..

وصلت إلى منزل سام، فاستقبلتني أمه وإخوته الصغار، رحّبت بي، وقالت لي قبل أن أسألها عن أي شيء : الحمد لله على سلامتك، أخفتنا عليك يا بني، أحمد الله على رؤيتك بخير، فدنوت منها : أشكرك يا خالتي، آسف على قدومي في هذا الوقت المتأخر ولكنني لا أستطيع الوصول إلى سام أبدا!

. يا إلهي وأنا قد ظننته منشغلا بأمرك، ولهذا لا يجيبُ على هاتفه، ولم يعد إلى الآن!

فأضمرتُ خَوفيَّ المفاجئ وقلت : لا تخافي، من الممكن أنه قد طرأ لديه عمل عاجل، و من الممكن أيضًا أن يكون هاتفه قد فرغ شحنه، يحدث ذلك كثيرا، أليس كذلك؟

. أرجوك أن تطمئنني عليه في حال وصولك إليه، فقد بدأت أقلق كثيرًا، أرتعب من التفكير في أن مكروهًا قد حصل له، لا قدر الله. وبدأت تبكي هَلِعة..

قبل أن أغادر طمئنتها وأخبرتها بأنني سأبحث عنه، وسنعود سوية إلى المنزل..

"جئتكِ بكل خيباتي وانكساراتي علّكِ تحملين عني شيئًا من الإعياء الذي يفوق مقدرتي، و تهدئين من روعي، وتخبرينني بأن كل شيء سيصبح على ما يرام، وإن كان كذبًا، فلقد حدثت أمور كثيرة قد تفكرين بأنني سأحيد عن قراري بسببها، ولكن كلا، إياكِ أن تفعلي شيئًا سوى التحليق والوصول إلى الهدف الذي نرنو إليه، وضعتكِ أمام نصب عينيّ، فلا تراجع بعد الآن. "

أين أنت الآن يا صاح، لم أدع مكانًا أعرفه وإلا قد سألت فيه عنك، آه يا سام كم من المُعضلات التي تعايشناها سوية، وفككنا قيودها واحدة تلو الأخرى بلا أن تمل عزيمتنا، أذكر جيدًا حينما كنا نلعب كرة القدم في الحيّ المجاور وحطمّتُ نافذة منزل الخال فؤاد ، ولكنك قد سحبتني إلى الخلف وتلقيتَ التوبيخ لوحدك، ولم يرتدّ طرف عينيك حينها، كم كنت قويًا حازمًا منذ صغرك، وعندها طلبتَ من الخال أن يُمهلك ثلاثة أيام كي تحضر ثمن الضرر الذي تسببتُ به، وبهذا تكون قد حللت الأمر قبل أن يذهب الرجل ويشكوني لأبي، ويحرمني من الخروج من المنزل، قد قلت لي وقتها بأن لديك بضعة أموال قد خبئتها في خزانتك، ولكنني قد عرفت بعد مدة وجيزة، بأنك عملت لثلاثة أيام في طاحونة

قريبة بعد العودة من المدرسة لتأمن المبلغ، كان عملا بطوليًا من طفل لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، كم كبرت في عيني وقتها وكم ازدادت صداقتنا تمسكًا منذ ذلك الوقت..

تسكعت في الشوارع التي اعتدنا عليها أنا وسام حتى منتصف الليل علّني ألمحه واقفا عند معمل أو مقهى ما، ولكنني لم أجده، فقررت أن أعود إلى المنزل خاوي الوفاض، فاهتز الهاتف ووصلتني رسالة، ظننتها من سام، وقد كتب فيها " يُحاط الإنسان بقدره في كل مكان يذهب إليه، لا يحدث كل ما نريده حينما نشتهيه، فمن الممكن أن يخدش المكان الآمن في حياتك وأنت الذي ظننت بأنه خالد إلى الأبد، فاحذر من أمر التفاحة على كل حال"

أقسم أنني بدأت أفقد صوابي، أريد فقط إشارة واحدة أبدية، مبدأً ثابتًا، رأيًا سديدًا واحدًا أسير عليه، بلا تلك الشقوق الطينية التي تزل بها قدمي ما إن وطئتها، أيًا كان أصل الأمر هذا، فلم تعد الأمور تأخذ مجرًى يُجاري هوانا، بل أصبحت على الجانب الآخر تتطاير مع نسمات الهواء الطلق..

أرخيت جفني واستلقيت متمددًا على أريكة الغرفة، أحصي عدد الأشخاص والأماكن التي تصلني بطرف خيط إلى سام، ولكنني قد روّست في ذهني بأن أول مكان ستطؤه قدماي في صباح الغد، مستشفى الحرية.

..

(١٠)

تخيّلت السماء للمطر، وتزاحمت الغيوم على بعضها ، وضوء الشمس بالكاد يبين، فهدوء هذا الصباح لا يمدني بشيء منه، والرياح العاصفة لا تُبرد جراحي، استيقظت مضطربًا، ولم أكترث بتنسيق هندامي، فصعدت إلى الحافلة المزدحمة كعادتها، لم أحتج شيئًا كي ألهو به وأفكر فيه بمن حولي، فقد كان عقلي يفيض عليّ بالإشارات، وعلامات الاستفهام، ولكنني أعرف شيئًا صائبًا واحدًا فقط الآن وهو وجهتي ، غفوتُ مستندًا برأسي على نافذة الحافلة، ولم أستيقظ إلا على توقيف مفاجئ للحافلة، وفي ذلك الحين استخرجت من حقيبتي دفترًا وقلمًا قد أهداني إياهما صاحب الطرود الذي لا أعرف عنه شيئًا، وبدأت أكتب جميع الأماكن التي يعرفها سام، والتي قد أخبرتني بها والدته أيضًا، وصلت إلى مشفى الحرية أخيرًا بعد عناء طويل، آه يا سام كم أنك شخص صبور ومكافح، دخلت إلى قسم الإستقبال وأعطيت الموظفة اسمه ، فأخبرتني بأنه يتواجد عادة في قسم العناية المشددة، ولكنها لم تره اليوم، من طابق لآخر قد وصلت أخيرًا إلى مديره، ألقيت عليه التحية، فردّها وهو منهمك في عمله، اقتربت منه وقلت : أريد أن أسألك عن شخص يعمل هنا، اسمه سام!

فترك ما بيده من عملٍ ونظرّ إليّ محملقًا وقال :اجلس يا أخي، مشيرًا إلى الكرسي المقابل له، وتابع أأخاك؟

-يعتبر كذلك ولكن كلا فهو صديقي، لم نستطع الوصول إليه أنا وعائلته منذ الأول من أمس! ففكرت أن آتي إلى هنا وأتفقده في مكان عمله، ومتى قد تمت رؤيته هنا آخر مرة!

-لم يأتي إلى العمل في الأمس، ولكنه قد طلب مني مغادرة مستعجلة في ظهر الأول من أمس، فقد كان حزينًا قلقًا حاولت أن أستجوبه بطبيعة الحال، ولكنه كان متكتمًا ،مكفهر الوجه على غير عادته، ولأنه رجل حريص على عمله وأنا ممتن له بالكثير من الأمور، لم أصر عليه وتركته يغادر..

فقلت بصوت بائس : أشكرك يا سيدي، ولكن أرجوك أن تتصل بي إن عاد إلى هنا! سأترك لك رقمي الآن..

عرفت حينها بأنه كان مضطربًا من أجلي، لأنه في عصر ذلك اليوم تحدّث معي في آخر مكالمة وكان يجهزّ حقيبتي في منزلي!!

فأمسك بيديّ قائلا : لا تقلق، وسأجلبه إلى منزله على الفور أيضًا!

كتبت له رقم هاتفي المحمول، وخرجت أتجول بين ردهات المشفى، ذات الرائحة المميزة، بذكراها السيئة في ذاكرتي، حينما كان أبي يستلقي على النقالة، والدماء تنضخ من كل مكان في جسده، فقد تكسرت رباعيته، ويداه، وتحطمت قدماه، وتمسكُ بيده أمي المنتحبة، وتركض من وراءنا مزينة الصغيرة، الرحيمة، ويبكي أخي جاد في ردهة ما، ولكنه رغم جراحه وتأوهاته بدا لي وكأنه يهمس ببضع كلمات، فوضعت أذني على فمه وسمعته يقول احترس جيدًا يا عليّ، ولا تترك أمك واخوتك أبدا فهم عيناك وترائبك، ولكنه قد فارق الحياة قبل أن يتم إدخاله إلى غرفة العمليات..

تتشابه المشافي كثيرًا، حتى أصبحت أتخيل فعلًا أننا قد فقدنا أبي هنا في هذه الردهة بالذات!

خرجت الممرضة من الغرفة التي أقف قبالتها، ففتحت ملفًا وبدأت تقرأ نتائج فحوصات مريض ما على الطبيب الشاب فقالت الممرضة : المريضة قد أخبرتنا أخيرًا باسمها!

فأبدى الطبيبُ سرورًا واضحًا وقال :حقًا ! ما اسمها؟

-اسمها مزينة !

شعرت برعشة قوية في جسدي، تشكل في ذهني ألف مشهد مرعب في مخيلتي للتو، ولكنني قد نفثتها من صدري، بسرعة هائلة، فمزينة ليست في هذه البلاد كلها، فكيف تكون هنا، يا لحماقة أفكاري.

عدت أدراجي متثاقلًا، ودنياي لا تتسع لخيبتي، لا أنكر أنني قد أهملت عائلتي، ولم أطمئن عليهم، حتى أنني لم أنظر إلى بريدي الإلكتروني في الفترة الأخيرة..

أمسكت بالقلم مرة أخرى وحذفت مستشفى الحرية من القائمة..

تدور في رأسي آلاف التساؤلات، لماذا هاتفه لا يتم الوصول إليه ؟ أحدث له مكروه ما؟ ما يطمئنني هو أن سام ليس لديه أي أعداء، وما يقلقني بأنه لم يطل الغياب من قبل أبدًا، فسام رجل منضبط، حريص، يحب عائلته جدًا، فليس من الممكن أن يتركهم فجأة بلا سابق إنذار، وأن يتركهم بلا معيل!

حلّ المساء واكتستْ السماء ردائها المزركش ذا اللون الأحمر، فتجمّلت به حتى أصبحت فاتنة للحد الذي لا يقاوم، وتزيّنت بالنجوم اللامعات كأقراط الياقوت في أذن فتاة، ولكنني قد تمالكت نفسي، ولم أمدّ بيدايّ لخيبات الصراع، فكلما وجدتُ ذراعيّ قد أرخت عروقها للرياح، تلحفتُ السماء ،وأحكمتُ إغلاق نوافذ روحي، واعتصرتُ حنقًا، من الصراع الذي يكمن في داخلي .

فأنا إنسانٌ مكدود منهكٌ ومتعب، قد استجمعتُ قوايَّ، وتأملتُ بالأرض الخصبة، واشتممتُ رائحة التراب، وكانت الغيوم هي حافلتي التي تقلّني حيث أريد، والرياح بوصلتي، وكل المحاولات لم تكن بائسة البتة..

ذهبت إلى بيت سام كي أطمئن على عائلته، وكانوا في حالة يرثى لها، فدموع أمه قد قشّفت وجهها حقًا، وبعد ذلك ذهبت إلى قسم الشرطة وأدليت بكل المعلومات التي أعرفها، كنت خائفًا جدًا ولكنني قد عزمت أمري، فلم أجد طريقة أخرى، أخبرني المحقق بأنه سيتم البحث عنه خلال يومان إن لم يتم الوصول إليه قبل ذلك..

لم أركب الحافلة وقررت أن أعود إلى المنزل ماشيًا على الرغم من اقتراب وقت بزوغ الفجر، ولم أجد نفسي إلا وقد انحرفت عن مسار منزلي، واتجهت نحو البئر المعجزة، علّني أجد ضالتي ،كانت ثمار الشجرة تلمع مثل النجوم في حلكة الليل، ولونها يشبه الأجرام السماوية حقًا ، مددت بيدي والتقطت ثمرتان ناضجتان منها، تفحصتهما جيدًا، ومسحتهما بقميصي مع أنه قد كان ملوثًا أكثر منهما، حاولت أن أتذوق طعمها، ولكنني لم أفلح، فلا أستطيع خيانتك يا سام، قد اتفقنا أن نعود سويةً ونأكل الشولة معًا، أكاد أن أنفجر غضبًا، أين أنت؟ ولماذا تتركني لوحدي في هذه الأيام السيئة؟ حسنًا، لنقل أنك قد تجاوزتني، أمن الممكن أن تتجاوز عملك وعائلتك!

ففرغت غضبي بالشولة حتى قذفتهما إلى داخل البئر بكل قوتي، فلم أسمع ارتطامهما في الماء، أيعني ذلك بأن البئر فارغ؟، أم أنه غائر جدًا!! وتذكرت بأن البئر تطفو مياهه على السطح في مساء يوم الإثنين، وتروي هذه الشجرة! يا لها من معجزة حقًا!

لا أستطيع حصر الذكريات التي تجمعني بسامٍ هنا! ولكن كيف لم يخطر لي أن أتفقدك هنا يا سام! وبعد يومين تجرّني قدمايّ إلى شجرة الشولة، والبئر!!

اهتز الهاتف في جيبي، فانفرجت أساريري، حسبت لوهلة بأن خيرًا جيدًا سأسمعه، ولكنها لم تكن سوى رسالة مكتوبٌ فيها :

"لا تفقد أثرك، وأنت منغمس في شأن غيرك، كم أنك عديم حيلة يا عليّ!"..

(11)

اعتدت على قراءة مثل هذه الرسائل النصية، فلم يتبقى لديّ فضول لمعرفة من هذا المتطفل المتجبر، الذي يقحمني في مصائب في كل مرة، وانتشرُ كالنار في الهشيم بعدها، أضرب، وأكسر وأحطم ولا أكترث، فنزلت بي المعضلات من كل حدب وصوب، كنت مكرهًا، مُهانًا، حتى أن رتابة الحياة قد أهانتني، فحلمي قد أصبح وضيعًا، وبلا سابق إنذار قد التهمت الأرض صديقي، والكروان الذي لم يعد يتصل بي منذ مدة طويلة، وأنتِ يا عزيزتي أستصبحين حقيقة أم أنكِ قد أقسمتِ أن أجر أذيال الخيبة، منشطر الظهر، ولكن أعدكِ بأن أول شيء سأفعله صباحًا هو البحث عن عمل، أيًّا كان لا يهمني، فالأهم من كل ذلك أن أستطيع أن أعيلَ عائلتي، وأن أساعد بمبلغ مالي لعائلة سام حتى حين عودته، لا تهلعي بالطبع كي تستطيعِ أيضا الوصول إلى حيث أريد وحيث ما ستكونين فيه سعيدة تحملين اسمي أينما ذهبتِ .

كان ضوء القمر ساطعًا وكأن شمسًا صغيرة قد أحاطت البئر في هذه الليلة،غلبني النعاس ونمت مستندًا برأسي على شجرة الشولة، لم أشعر بأي شيء، فكان ظل الشجرة قد حماني من أشعة الشمس، نهضتُ مندهشًا، فهذه المرة الأولى التي أنام فيها خارج المنزل بإرادتي، وأين؟ في المكان الذي قد منعتُ من الاقتراب منه طوال عمري، يا للهول..

توجهت للعم ناجي قبل أن أذهب إلى البيت، تفحصني بنظرات مندهشة، ولكنه لم يسألني عن شيء، فجلست على كرسي الحلاقة، أمسكَ بوجهي وابتسم وهو ينظر إليّ من خلال المرآة وقال : أتصدق أنك قد أعدتني إلى الخلف عشرون عامًا، حينما قد توفي جدك، وبقيت بعدها مبعثرًا، غير مبالٍ، حيثما تأخذني الرياح أسير، فقدت ثقتي بنفسي، وتركت عملي وأغلقت هذا المكان، التهمت نفسي قبل أن يلتهمني الآخرون، تآكلت وأنا أعيش مع الحزن، لا أعرف ما الذي يحصل لك يا عليّ، ولكنني قلق جدًا حيالك، فرفعت يديّ حتى أمسكت بيديه وقلت له : وكيف قد نفضت الحزن عنك يا عمّ؟

فترك مقص الشعر ووضعه على الطاولة، ووقف قبالتي وقال : يظن الإنسان بأن حزن اليوم سيأكله وينهيه، سيتوقف عداد الساعة بفراق أحدهم، وبأن الدنيا كلها قد توقفت لوهلة تتعايش مع ألمه وعجزه، ولكن بالحقيقة بأن لا أحد ينظر خلفه وما من شيء يتوقف جانبًا، ستسير الحياة رغمًا عن أنفه، لا أنكر بأنه سيسمع بضعًا من جمل المواساات ولكن بالكاد لا تفي بالغرض، الحقيقة يا عليّ بأن الإنسان يعتاد على كل شيء، يظن بأنها نهاية الحياة في بداية الأمر، ولكنه بعد ذلك يعتاد على ألمه وحزنه وبؤسه و فقده، فهيَ مسألة وقت وحسب، ثم سينسى المرء كيف كان قبل ذلك حتى !..

نظرت بيأس وبعيون دامعة وقلت : حسنًا يا عمّ، سأخبرك بكل شيء من البداية.

بعد أن سمع العم ناجي خبرًا كهذا عن سام، اضطرب وأصبح في حالة غريبة لم أراه بها من قبل، ولم يقل شيئا، ربّتُ على كتفه وقلت : ما الذي حصل؟

- لا شيء يا بنيّ، ولكنني قد حزنت فعلًا! أدعوا الله أن يعيده سالمًا معافًا.

سرت إلى المنزل وما زالت ردّة فعل العمّ تربكني حيال ما سمعه عن سام!

أمن الممكن أنه يعرف شيئًا؟ أو قد سمع خبرًا سيئًا، وخاف أن يحزنني!

فمنذ اليوم الأول الذي ودّعتُ فيه عائلتي، لم يدعني لوحدي، بل كان رحيمًا عطوفًا ،يمدُّ بيديه إليّ على الدوام، وكأنه قد أقسم على نفسه بأن يكون لي عائلة بعد عائلتي..

ولكن تمضي الأيام سريعة في ضرباتها وجنونها، خمسة أيام بأكملها لم أستطع أن أمسك ولو بطرف خيط يوصلني لسام، أخاف أن أعدّ الأيام، وتصبح عادة سيئة ونتيه بعدها يا صاح، وتتراكض عقارب الساعة، وينتهي أيلول وتشرق شمس صباح تشرين، لم تهطل الأمطار في نهاية أيلول كما قد تهيئنا لها، لم يخدعنا ولكنه قد أخبرنا بطريقة أخرى بأن كل شيء سيحدث بتوقيته المناسب، ولذلك لم أقطع أملًا بل أوصلتك بآمال آخرى علّك قد انتقلت إلى مكان بعيد لسبب ما، ولم تستطع أن تصل إلينا، وبالرغم من كل شيء ما زلت أنتظرك على أحر من الجمر، أيًا كان عذرك عهدًا عليّ بأنني سأتقبله، يكفي أن تأتي سريعًا ..

وصلت إلى منزلي ووجدت طردًا صغيرًا مركونًا أسفل الباب، لوهلة كنت سأركله بقدمي، ولكنني لم أستطع أن أفعل ذلك، انحنيت وحملته، ووضعته على الكنبة، وبدأت أتأمل غلافه، بألوانه الزاهية، وكل ما بي سواد حالك، اقتربت نحوه، وبدأت بفتحه وإذ برائحة غريبة تفوح منه، جحظت عيناي وارتجفت يداي من هول المفاجأة ورميته أرضًا.

..

(١٢)

-أشتم رائحة التراب الذي ابتل بمياه الأمطار ، وأشعر بتلك الرياح التي تغزو جسدي، وتداعب شعري، وأقف على النافذة بعكازتي، أتأمل أشعة الشمس الناعمة، والجوّ الخريفيّ، وبذلك الحين أدركت أنني أتعايش مع كم هائل من المتناقضات التي لا تبارحني، رفضيّ التام عن إفصاح هويتي، عائلتي، مكان سكني، أصدقائي، وأقاربي، اتخذت على نفسي عهدًا بأن أجابه لوحدي، بأن أُرمم نفسي بنفسي، و أواجه الصراع بلا ريب وبلا أن يشتت الذعر مساراتي، ويلقي بي على قارعة الطريق، خاوية الوفاض ،أردتُ أن أعود قوية كأخي عليّ ، و أكون اليد التي تشدُّ على يديه،لا تلك اليد التي تصفع بسوء أفعالها.

لم أستطع أن أتعافى جيدًا ، فقد خانتني قوايّ، يدايّ وقدماي بكسورهما الكثيرة، وبآثار القضيب المعدني الذي اخترق معدتي، وخلّف آلامًا أعجز عن حملها في حلكة الليل، منتظرة بزوغ الفجر، أو مهدئًا في وريد يدي، حاولت أن ألقي النظر مرة أخرى من تلك النافذة ولكن رؤيتي قد تضللت، وخرّت قواي مجدّدا. فهرعت الممرضات إليّ، فقدمي لم أعد أشعر بها، بدأت أتحسسها، وأصرخ، أنظر تارة إلى من حولي، وأنظر إلى قدمي تارة أخرى والدموع تنذرف على وجنتيّ، والذعر قد عطّل محركات التفكير في عقلي، وبذلك تم إجراء عدة فحوصات لي، وتم إعادتي إلى الغرفة رقم 24، وجهت نظري إلى الطبيب قائلة : ما الذي يحدث؟ أخبرني أرجوك..

فدنا مني الطبيب قائلا:أأنتِ متأكدة بأنه ليس لديكِ عائلة أو أي أصدقاء!

تلعثمت وقلت : كلا، ليس لدي أي أحد.

فقال الطبيب مترددًا: ولكن الأمر جاد جدًا هذه المرة!

فغضبت وانهمرت دموعي مجددًا : ألا ترى أيها الطبيب بأنني شابة! أي أستطيع اتخاذ القرارات، والعيش لوحدي أيضًا، أنظر إليّ أنظر جيدًا ما الذي رأيته مني حتى فرضت بأنني بحاجة ماسة لمعيل! أم أنك تظن ذلك فعلًا، وبدأت أشنج كطفلة صغيرة قد ضيعت دميتها..

فقال الطبيب مواسيًا : كلا يا مزينة، لا أظن ذلك بالطبع، على خلاف ذلك تماما، فأنتِ فتاة قوية وصبورة جدًا، لا أعلم سبب انفعالكِ هذا، ولكن إياكِ أن تظني بأنني قد استفسرت عن أمر العائلة والأقارب والأصدقاء من أجل عدم استطاعتكِ على تولّي أمركِ، كل ما في الأمر هو..

فلم يكمل الطبيب حديثه، والتمست في نبرة حديثه ترددًا وحزنًا واضحين جدًا.

فقلت له : هو ماذا؟!

. سأخبركِ لاحقاً، ولكن اهدأي الآن وتعافيَّ جيدًا ،تستطيعين فعل ذلك ،أليس كذلك.؟

كانت الدموع تبلل عينيه، ولكنه قد مسحها على الفور، وضحك ضحكة صفراء، كي لا أشعر بذلك، وقال :سأعود مجددًا..

أيًا كان الأمر لن أفصح عن وجود أم وأخ لي، لا أستطيع يا عليّ أن أمسك بيديكَ، ويدايَّ باردتان، مستنجدتان، أريد أن أقف وراء كلماتي، لا أن تتوغل في وحل المصائب من أجلي، يكفي كفاحك من أجلنا، أظن بأنه قد حان دوري، أليس كذلك يا أخي العزيز؟

كم أتيه في اللاشعور، وكم كان الشعور يُغرقني بحالة مريعة، فالكم الهائل من الأفكار والأحلام والهموم الصغيرة المنفردة، التي تأتي كلًا على حدا، تقصم ظهري، تشتتني، تفقدني تركيزي، كالصاعقة التي تفلع الصخر الذي قد عاش دهرًا من الزمن، ولكنني لم أتجاوز بعد العشرين من عمري..

تحسست قدمي التي لا أشعر بوجودها، وتحسستُ قلبي الذي ينبض بقوة بعدها، لم أعرف سببًا واحدًا يتوجب عليه البكاء، ولكنني رغم ذلك أبكي، وشعرت لوهلة بأنني أبكيك يا عليّ، وأبكيكِ يا أمي، أخاف أن أجر أذيال العجز، ويهزمني المرض، ولا أجد إلا وقد أرغمت على الرجوع إليكم بحالتي التي يرثى لها..

ليس باستطاعتي أن أحصر مواقفك البطولية يا عليّ من أجلي، كيف كنت تمسك بيديّ، وتوصلني إلى المدرسة صباحًا، وتقف تحت سياط الشمس، أو تساقط الأمطار تنتظر أن تنتهي دروسي وتعيدني إلى المنزل، أن تساعدني في حل واجباتي،أن تجلب لي الحلوى بين الحين والآخر، وتأخذني إلى مدينة الألعاب، وتشتري لي الدمى، بكل المال الذي ادخرته، الفارق بيننا عشر سنوات، ولكنني لطالما قد شعرت بأنك تتجاوزني عقدًا من الزمن، بحنانك، ورقتك، وسماحتك، وعطفك الجميل..

أذكر جيدًا ذلك اليوم الماطر في شهر ديسمبر حينما كان والديّ قد ذهبوا في زيارة إلى مدينة أخرى، كنتُ في عمر السادسة من عمري، حينما قد أضعت المال الذي أعطاني إياه والدي، فظننت أنه قد سقط على الأرض في أثناء سيري، فعدتُ أدراجي أبحث عنه، كان الجو عاصفًا شديد البرودة، والأمطار غزيرة فوقعت في الوحل ولم أستطع أن أنقذ نفسي منه، فأصبحت أبكي وأصرخ، حتى جاء عليّ يركض نحوي، فألبسني معطفه، وحملني على ظهره، شعرت بالفخر حينها بأن لديّ بطلًا يرفعني كلما وقعت، أسند ظهري عليه كلما شعرت بالعجز، يمسح دمعي، يهدأ من روعي إن بكيت بسبب أو بلا سبب، ساعدني في خلع ملابسي، وارتداء ملابس دافئة، وبعدها أشعل المدفأة بنيرانيها المتأججة، التهمت الحساء الذي أعدّه عليّ، وغفوت على قدميه، ولكنني قد أصبت بالحمى في تلك الليلة،

كنت أرى خيالات من عليّ وهو يمسد على صدغيّ، وأسمع صوته مناديًا مزينة الصغيرة، زهرة منزلنا ،أميرة حينا، حبيبة والديها، فتاتي المدللة، استيقظت صباحًا وقد وضع على وسادتي، ضعف ما كنت ما أملكه من المال..

فحفظت رسالته في قلبي منذ ذلك الوقت، إن كنت سأفقد شيئًا، فعليّ سيجلب لي ضعفه، أيًا كان..

بدأت بمسح دموعي، واتخذت قرارًا سريعًا قبل أن أعرف نتائج الفحوصات، فطلبت من الممرضة أن أستخدم حاسوبها كي أرسل رسالة عاجلة، فوافقت على الفور، بدأت أكتب بلا أن أُعيد قراءة أحرفي.

" أمي الغالية.. متأسفة جدًا لأنني قد فررت من حضنكما، لا تخبري عليًا بأي شيء، ولكن شاءت الأقدار بأن يطول الفراق، وأعدو خلف جراحي لمدة أخرى، أريد أن أخبركِ بأنني على ما يرام، ولكنني لم أصل بعد، ولا أدري متى يتوجب عليَّ الوصول..

قبلاتي الحارة لكِ ولعليّ؛ مزينة "..

...

(13)

اقتربت رويدًا رويدًا من الطرد الذي تُرك أمام الباب، حتى رأيت ذلك الرأس الممتلىء بالدماء، و معالم الوجه لا تبين، لم أعرف إن كان حقيقة أم تمثالًا، لم أستطع أن ألمسه، أو اقترب منه أكثر، فالذعر قد تمكن مني جيدًا، وشعرت بأنني سأفقد وعيي، وأخرّ على الأرض، كجثة هامدة، تظللت رؤيتي، جاهدت كي أصمد أكثر، ابتعدت وجلستُ على الكنبة المقابلة له، وركبتاي غارقتان في صدري، مشتت التركيز، ومئات الأفكار تحوم في دائرة ضيقة جدًا، تضيقُ بها عينايّ بالكم الهائل من الخوف والذعر الذي يلتف من حوليّ، دخلت في نوبة هلع من رؤية الدماء، لم أحرك ساكنًا، ولكن بعد مرور ساعتين ونصف على هذا الحال، سقطت ورقة كانت قد ألصقت على الرأس تحت قدميّ، جحظت عينايّ، وصرخت : يا للهول ما الذي يحدث هنا يا إلهي؟!

تمالكت نفسي ،وعزمت أن التقط الورقة وأرى ما الذي كتب بها، فقرأت بصوت عالٍ وضحكتي الصفراء ترتسم على شفتيّ: " تخلّى عن مخاوفك ، كي تقتحم عنان السماء"

أريد أن أشتم وأصرخ، وأتخبط ، وأشكي وأشتكي ولكن على من؟ وإلى من؟ ومِن مَن؟

آه ،كم أنه شيء يجبرني على الغثيان، من أين تخرج كل تلك الأشياء المقرفة، اتصلت بحارس العمارة فجاء راكضًا، ففتحت له باب المنزل وقال لاهثًا: رأس ماذا! أقتلت أحدًا ما؟ ما الذي يحدث يا عليّ؟ قد أصبتني بالهلع حقًا!

لم أقل شيئًا، فأشرت إليه بالدخول.

اقتربَ من الطرد، في البداية بدا قلقًا، ولكن سرعان ما أخذ بالضحك، فأمسك بالرأس وحمله بين يديه، مقهقهًا من هذا الذي يعبثُ معك بالدمى وشراب الكرز يا أخي، هذا شيء مضحك جدًا !

لم أفهم ما الذي يقوله في بداية الأمر، ولكنني حينما تأكدت بأنه يقول الحقيقة استشطت غضبًا، ولكن شعورًا مريحًا وأمانًا قد أصابني للتو..

ابتلع الحارس ضحكته حينما لم يراني على ما يرام، فقال : انتهى، لا يوجد شيء يثير القلق، سآخذه معي، وأرميه في القمامة.

حينما أخرجه الحارس من المنزل تنفستُ الصعداء، تناولت الجبنة والبيض، وغفوت بلا أن تتصارع الأفكار في رأسي، وتتسابق الأحزان إلى قلبي، وكأن فقدك يا صاح لا يكفي..

استيقظت متثاقلا بعد عدّة ساعات على صوت الهاتف يرن، كان المساء قد حلّ، أخبرني الرجل بأنه تابع إلى قسم الشرطة وبأنني قد قدمتُ بلاغا عن فقدان شاب، وقد تم الحصول على بضع معلومات قد تفيد في التحقيقات، وإذا أردت... ،لم يكمل الرجل كلامه وقلت له : بالطبع سآتي فورًا ، قومّت جلستي ونهضت مبتسمًا، سأمسك بطرف خيط أخيرًا يا سام، ارتديت وخرجت مسرعًا، حتى أنني قد رتبت شعري بأطراف أصابعي، دخلتُ إلى المبنى فأخبرني الشرطي بأنّ عليَّ أن أنتظر لبعض الوقت، كانت هذه الدقائق أثقل أوقاتٍ قد مرّت في حياتي، تنهدتُ وصمت، فكّرت وهرعت، توسلت لله حتى بكيت، وحينما رفعت بطرف ملابسي كي أمسح دمعي، صرخ الشرطي :علي جاد الحق.

دخلت مسرعًا وآلاف الأفكار تدور في رأسي، تبادلنا التحية وجلست على الكرسي المقابل للمحقق، وكان الشرطيّ يقف جانبًا، رفع المحقق قلمه، وبدأ ينظر إلى ترددي الواضح، وقال : سأخبرك بكل شيء، ولكن عليك أن تهدأ أولًا.

وكأنه قد صبّ الزيت على ناري، أي هدوء يقصد!

بدأ شارحًا : قد حدثت جريمة قتل قبل خمسة أيام في نواحي المدينة، وُجد رجل مجهول الهوية مقتوَلا، وقد لُفّ بكيس من الخيش، مرميًا في القمامة، تم العثور عليه حينما قد اشتكى سكان ذلك

الحيّ من الرائحة الكريهة المنبعثة من القمامة المهملة، وبذلك قد تطابقت بعض الصفات التي قد قمت بذكرها عن رجل مفقود بتاريخ ذلك اليوم.

لم أستطع أن أستمع لكلام المحقق أكثر، فنهضتُ ووضعت يداي على أذني، وصرخت: كفى لا تكمل أرجوك، لا يمكن حدوث ذلك، أي لا يمكنني أن أصدق بأن سامًا قد رحل وبهذه الطريقة البشعة!

لا يمكنه فعل ذلك! لم نتفق على هذا الأمر هكذا، أصبت بنوبة غضب حتى فقدت رشدي، لم أستمع لأي أحد ووجدت نفسي في الزقاق أسير، والدمع على خدي يسيل، فلا الزمان يعود ولا الأماكن تتاح لنا بعد فوات الأوان، كيف استطعتَ أن تفعل هذا بي، أن تتركني بكل تلك الندوب، عاهدتني، ولا يمكنك أن تخلف وعدك فلست برجل هكذا، فأنا أعلم ذلك جيدًا.

تسلطّ الحزن والجزع وقلة الحيلة عليَّ حتى وطأت قدماي الأرض القاحلة، اقتربت من شجرة الشولة وبالكاد قد عانقتها، شكوتُ لها، وأمسكت بثمرتين حتى تذكرت جلستنا الأخيرة هنا، ومن شدة غضبي قد رميتهما في البئر المعجزة..

لم أسمع ارتطامًا قويًا كهذا قبل هذا اليوم، فكان مواساتي

جررت بقدماي إلى عائلة سام، لعلني أجد خبرًا جيدًا يناقض ما قد سمعته اليوم، تأوهت وكانت المرة الأولى التي أطرق بها باب منزلك يا صاح باكيًا، جاهدت أن أعود لوعيي وأقف صامدًا أمام أمك وإخوتك، ولكن لم يتبقى لديّ أدنى قوة لفعل ذلك، طرقت الباب عدّة مرات، ولكن لم يجبني أي أحد، طرقت بقوة أكبر، ولكن بلا فائدة، فأصبحت أصرخ فخرج الجار من النافذة غاضبًا، قائلًا لي : ما بك يا هذا، قد خرج أهل هذا المنزل منذ الصباح الباكر!

- أتعلم إلى أين قد ذهبوا؟

- ومن أين لي أن أعلم!

- حسناء، المعذرة.

لا أعلم ما الذي يحصل، لماذا يختفي الناس هكذا من حولي فجأة، ما الذي يحدث حبًا بالله!

إلى أين قد تذهب العائلة بأكملها في هذه الأحوال!!

أمن الممكن أنهم قد لجأوا إلى أحد أقاربهم؟

أذهبوا طواعية أم قسرًا ؟!

وكأنني أعيش في متاهة الحياة الملتوية، أتخطّى صراعًا، وأدخل إلى صراعات أخرى بعده للتو، أنصاع لأمرها مكرهًا، غائبًا عن الوعي، ويلتف حبل الخيبة حول عنقي، يشتد بين الحين والآخر، ولكنه في الآونة الأخيرة، لا ينفك يزداد وجعًا وقلقًا وقهرًا، مخلفًا كدمات لا بأس بها..

اهتز الهاتف ووصلتني رسالة جديدة، ترددتُ في فتحها، كانت يداي ترتجفان حقًا! أخذت نفسًا عميقًا في محاولة للتخلص من القلق الذي يهيمن عليّ، وبدأت في قراءة الرسالة الذي قد كُتب فيها

" أين أنت الآن؟ في أي حفرة تقطن على هذه الأرض؟ أين البحث عن العمل؟ والعائلة؟ عدّ إلى رشدك قبل فوات الأوان ".

وإنك لرجلٍ قاسٍ لا تفكر إلّا في حجرة واحدة من أجل الوصول إلى إنقاذ ما تم هدمه من ماديات، وليس ما تحطم في قلبي.

جلست أفكر بما قاله المحقق، أنه سيتم تشريح الجثة التي تم إيجادها غدًا، وإخراج نتائج التشريح بعد الغد لكشف هوية المقتول، لا أستطيع أن أقف مكتوف الأيدي هكذا، أريد أن أنقذ رأسي من وابل الشكوك الذي أصابني، وأنقذك من تلك المسألة الشائكة، وبأن لا تكون طرفًا منها ولا حتى بجزء ضئيل يا صاح!

...

(14)

سمعتُ الطبيب يتكلم بهمسٍ للممرضة أمام باب الغرفة، يقول لها : ليت باستطاعتي أن أحل هذه العقدة، أستصعب فعلًا قول شيء لها! مثلا أن أقول مرحبًا مزينة، أنتِ مصابة بسرطان عظام، يا لها من سذاجة! وبدأت الممرضة بقول أشياء كثيرة، لم أستطع أن أستمع لحديثهم أكثر من ذلك، بدأت أبكي، وما من أحد يستطيع أن ينتشلني من وحل الشعور وقتامته، تدثرّتُ بغطاء السرير، وأرغمتُ على النحيبِ مجددًا لوحدي، تظللت رؤيتي، واكتظت الغيوم السوداء فوق قلبي، لم أنبس ببنت شَفةٍ حتى أنني قد أصبتُ بالوجوم ،وللمرة الأولى في حياتي لم أشعر بأنني مهزومةً هزيلةً كمثل هذا اليوم، كم أنني بحاجة ماسة لحضنكِ والبكاء يا أمي ، كم أن الحياة قد انقلبت رأسًا على عقب،أعتذر لك يا أخي عليّ على قلة حياتي ، ولا أظن بأنني سأكون على ما يرام بعد هذا اليوم .

حاولت أن أتكور على نفسي، ولكن الشجى قد ألَمّ بي مجددًا وصرخت من شدة الألم الذي يشتد في قدمي بين الحين والآخر، فجاءت الممرضة وغرزت حقنة في وريد يدي، أظن بأنها لتهدّأت وجع قدمي، ولكن أما من حقنةِ تغرز في قلبي وتخمد آلامه وهيجانه إلى الأبد؟

جاء الطبيب وبدأ يتكلم بصوت متحشرج ،وكان وجهي ممتقعًا لا يُخبر شيئًا، صامتةً، هادئةً، بلا حراك، تمهدّ لقول الأمر الذي قد سمعته منذ ساعات، وأخبرني بنتائج التحليلات والفحوصات، وأنه سيتم أخذ خزعة خلال مدة قصيرة، وأن احتمالية إصابتي بمرض السرطان 70 ٪، وأخبرني بأنه يتوجب عليَّ أن أكون قوية جدًا وأن لا يخيفني أي شيء، كانت عيناي منصبتان على الطبيب، ولكن عقلي وقلبي في مكان آخر تمامًا ، سأصبح على ما يرام في نهاية الأمر أليس كذلك؟

وألتقي بعائلتي الذين لا أعرفهم عنهم شيئًا ، وأجد الوقت لطلب العفو والمسامحة؟ والحضن الذي لجأت إليه في أحلك لياليّ؟ أمي؟ عليّ؟

لكن الصورة قد انحرفت بعض الشيء، لم أعد أراها مثالية، جميلة كما السابق، أجدُ بها ما يشوهها وما ينغص عليَّ عيشي، ولكنّ قلبي ثابتٌ للغاية، وردود أفعالي متزنةً جدًا، وعينايَ تبرقان كما السابق، وكلماتي لم تعذل قط، وهذا ما يثير مخاوفي..

كأن السماء قد فتحت على مصرعيها وأخبرتني بكل ما أريد معرفته، فالتهمِ يا نفسُ بقدر استطاعتك، إن كان خيرًا أم شرًا، ففي نهاية المطاف توجد الحقيقة لا غير.

(15)

إنني لا أرى جيدًا ما يتوجب عليّ رؤيته في كثير من الأحيان، فلا أجد وإلا وقدماي قد خرجتا عن موضعهما تتأرجحان على الهاوية، تأخذني أفكاري إلى ما تحت الأرض ظانًا بأن ساما قد التهمه التراب، وفي حين آخر أفكر بأنّه قد هجرني وعائلته إلى آخر بقاع الأرض، هاربًا من القيود التي قد تشكلتّ في السنوات الأخيرة، والتي قد تعقّدت تمامًا بدخولي إلى السجن ،ولكن هذا الشخص الهارب لا يمثّل سامًا أبدًا، وفي هذه الليلة الباردة الجافة يقيدني عقلي بالتفكير في نتائج التشريح، التي تمنعني من النوم، وتسبب لي الأرق، لا أستطيع أن أفكر بالأمر أكثر من ذلك، أي أنني لا أريد تصديق ما سمعته، هذا كل ما في الأمر.

كُنت قد تحدثت إلى مدير عمل سام فطلبت منه أن أشغل مكانه إلى حين عودته، أو حتى بالأحرى إلى حين قبول إحدى الشركات توظيفي مجدًدا، قد قَبِلَ المدير وأخبرني بأنني سأباشر العمل في نهاية الأسبوع، لأنه قد تغيّب لعشرة أيام ، ولا يستطيع أي أحد أن يَحل مكان الآخر، ولا أدري إن كنتُ سأفلح في ذلك يا سام..

"منذ أيام طويلة لم أكتب إليكِ، تظنين بأنني قد نسيتك أو قد تناسيتكِ، ولا أدري لِما عليّ الآن أن أكتب، أو بالأحرى ما الجدوى من تسرّب الكلمات من الشفاه إلى الأوراق والتوثيق، ألا يعني ذلك فقد المتعة في العيش بخفاء، أو أن معايشة الشعور العظيم في قلب صغير تتسرب منه العَبرات على حين غفلة في كل مساء، من الأمور التي لا تطيق صبرًا وتحملًا؟ "

أجل، فقد عرفت ذلك منذ فترة وجيزة، وواجهت أضخم إعصارٍ بمفردي، حتى أنّه قد أوشك على أن يجرّدني من أعظم شعور أنتشله في صدري، ومن أسخف سبب للضحك وللبكاء معًا، ولكن شيئًا ما قد حدث بدون إذن مني، وكأن كل الأبواب التي أُحكمت إقفالها قد فُتحت على مصرعيها، بلا أي أدنى احترام لخصوصية قد فرضتُها منذ زمن.

الإثارة والأحلام العظيمة والأمنيات الجيدة لا تصلح في كل محطات الحياة، قد تخيب تارة وتكبر وتتعاظم تارة أخرى، وما بين ذلك يتعايش الإنسان مع إعياءه وإخفاقه وبؤسه مجاهدًا نفسه كي يوازن بين عذاب الضمير والاستمرار.

وفي كلا الحالتين إما أن يتم اختباره أو أن يتجهز لاختبار جديد،فلا مفر من ذلك يا صديق، فإما أن تفر هاربًا من نفسك التي حسبتها ظلامًا، وتفر إلى نفوس الناس وهي الأشد حلكة، وأما أن تواجه الأمر ليصبح ما يعاديك عاديًا...

استلقيتُ على الفراش بعد أن تناولت بضعًا من الخبز والفاكهة، رنّ الهاتف، فشعرتُ بالذعر حتى أنني وضعته بين يديّ وضغطتُ عليه، وفي حين أن هدأت قررت أن أرى، فهي مجرد رسالة في نهاية الأمر، فقد كُتب فيها :" أهنئك بأنك قد بدأت تفهمني، مبارك لك عملك الجديد، اهتم بعائلتك قليلاً.. ".

ركنتُ الهاتف جانبًا وغفوت، فلا أستطيع الانشغال بأمر هذه الرسائل الآن..

مررتُ إلى الأرض المعجزة قبل الذهاب إلى المستشفى لرؤية الجثة ونتائج التشريح، وكأنني أجد بها روح صداقتنا وأخوتنا، فالتقطت ثمرتين من شجرة الشولة ورميتهما في البئر، فأصبحت هذه عادة جديدة لي منذ اختفاء سام، فإن لم نأكل من شجرتنا نحن، فلن يأكل أحد آخر منها أيضًا، فلتذهب إلى قاع هذا البئر المظلم المخيف...

جلستُ في غرفة الإنتظار وعيون الناظرين تلتف حولي، أمن الممكن أنهم يستطيعون قراءة ملامح وجهي ،وكشف حزني وقلقي الذي أجاهد كي لا أظهره، أم أن تأثير القلق قد جعلني أظن ذلك، غسلتُ وجهي بالماء البارد، وهدّأت من روعي بأنه ليس من الممكن أن تكون هذه الجثة الملقاة في القمامة عائدة لِسام ، تآكلت من شدّة قلقي وذعري، تناسيتُ فرحي وأيام سعدي، وأصبحتُ أبكي بحرقة أكثر من السابق، لعلني أجد بالبكاء مخرجًا أستطيع أن أنفث فيه عن قهري ولوعتي وغيظي، خرج الطبيب الشرعي وبدأ معزّيًا مواسيًا، وضعت يدي على قلبي، وتحسستكَ، وأنت تتحرك خلف عظام صدري، فأكمل الطبيب قائًلا : الجثة ليست عائدة لسام، أعاد الله مفقودكم، ورحم الميت وأسكنه فسيح جناته.

فأمسكتُ بيد الطبيب وتشبثتُ برداءه وقلت له : كنت أعلم بأنه ليس سامًا، كنت أشعر بذلك ولم يخني شعوري، أشكرك من كل قلبي، فضممته وركضت إلى الخارج، هاربًا من جحيم ما قد تعايشته للتو، آهٍ من وداعك الجاف والقاحل مثل الصحراء التي لا نهاية لها يا سام، قد أحرق وجهي وقلبي، وأوراقي قد اصفرّت ،وأغصاني قد تكسرت، وجذوري قد تقلّصت تحت التراب، ولكن هنالك بصيص أمل رغم كل ما جرى.

بعد عدة محاولات استطعتُ الوصول إلى أم سام وإخوته، وأخبرتني بأنهم قد لجؤوا إلى خالهم الذي يقطن في الشارع الخلفي من بيتهم حتى حين عودة سام، وكان صوتها المتحجرش يقطُّرُ عجزًا وألمًا..

أنزلتُ حقيبتي من على ظهري، وجلست على كرسيّ في الحديقة العامة، وأخرجتُ بعدها دفترًا وقلمًا ، وأزلت آخر مكان يحتمل تواجد سام فيه، وروّست عنوانًا لصفحة فارغة " سأنتظرك للأبد".

عدُت إلى المنزل كي أنام باكرًا، وأتوجه إلى العمل في الصباح الباكر، ولكنني قد عدُت بأمل جديد يتسرب في داخلي ، ووجدتُ طردًا صغيرًا قد ترك أمام باب منزلي، حملته بيد وفتحتُ الباب باليد الأخرى، أغمضتُ عينيّ وجلستُ على الكنبة والطرد بين يديّ، أتفكر بكيفية حدوث كل تلك الأمور في حياتي، بالتعقب المستمر في كل أموري وتحركاتي، حتى لما يخالجني، بما أضمره وأخفيه في جوفي، حتى صراعاتي التي أحاربها تتمثلُ أمامي على الدوام، بخوفي الذي أفر منه، أجده بين الحين والآخر يقف في مواجهتي، فتحتُ عينيّ بعد محاولة فاشلةِ لفهم ما يحدث، بدأت بفتح الطرد بتأني خفتُ في بداية الأمر ولكنني أصبحتُ أعتاد على ذلك بمرور الوقت، وجدتُ خشبة منحوتة على شكل منزل، وحينما تمعّنتُ النظرَ فيها، فهي تشبه المشفى بشكل أكبر، كثيرة النوافذ، ولكن يوجد قلب أحمر صغير على إحدى النوافذ، لم أفهم شيئًا، بحثتُ إن كان يوجد أي ملاحظةٍ أو جملةٍ مبهمة ٍكما في العادة، ولكن لم أجد فوضعته على الطاولة، تحرّكت الطاولة بشكل خاطئ حينما قد اصطدمت بها، فوقعت الخشبة على الأرض، فدنوت كي أرفعها ولكن النافذة ذات القلب الأحمر قد فُتحت وخرجت منها ورقة صغيرة، جلستُ أرضًا أتأمل حجم النافذة وكيف خرجت الورقة منها، فتحتُ الورقة المطوية وبدأتُ بقراءتها، فقد كُتب فيها " يُخرج الله لكَ أملًا خفيًا في ألمك، ابدأ بجدٍ، ولا تترك تلك النافذة مفتوحة، اغلقها بكلتا يديك"..

لم أعرف ما هي ردة الفعل التي يتوجب عليّ فعلها، فقد أصبحت ساكنًا بلا حراكٍ في الآونة الأخيرة!

و تتوالى الأيام بلا أي فرق يذكر، حتى أن رتابة الحياة قد أصبحت أمرًا اعتياديًا للغاية ،فمنذ أن سجنت وطردتُ من عملي واختفى سام، لم أشتهي احتساء الطعام في المنزل، فحينما أقرر فعل ذلك، أتراجع فورًا، وكأنها فكرة عجيبة غير مألوفة لدّي، فأتناول المعلبات والبطاطا المقلية، أتثاقل من تنظيف المنزل وتعطيره، فأبدأ متكاسًلا بأرضية المنزل وأنتهي بتلميع الزجاج ولكن حينما أقف أمام طاولتي التي تناقصت أعداد كؤوسها، أتاملها حتى أنسى ما الذي كنت أفعله ..

فألتف بغطائي على السرير أتامل الأيام الخوالي، أبكي تارة وأضحك تارة أخرى، أتلوّى عجزًا وقهرًا وقلة حيلة..

ثم ماذا؟ لا شيء البتة.

فتغفو عيناي ّ ويرنُ المنبه فجراً، ارتدي ملابسي وأشرب شايًا مرًا ولكن اليوم مختلف بعض الشيء، فسأباشر العمل، حينما كنت أرتدي معطفي قرع جرس المنزل، وأخيرًا قد رجعت يا صاحبي، سأضربك ضربًا مبرحًا هذه المرة، لم أفتح الباب، جعلتُ الطارق ينتظر بعضا من الوقت، حتى أرتدي حذائي ونخرج، فخرج صوت من وراء الباب يقول :"هل أنت هنا يا عليّ؟".

(16)

شعرتُ بصوت نبضات قلبي التي تخفقُ بشدة، ولا أدري إن كان هذا وجيفا أم رجيفًا، تمنيتُ ألف أمنية وأنا أعدّ خطواتي لفتح باب المنزل، هي فعلًا بحد ذاتها تقفُ أمام الباب، ويداها ترتجفان من البرد، وعيناها تبرقان، وكأنها قد كبرت كثيرًا منذ آخر مرة قد رأيتها بها، لم أخطو خطوة أخرى نحوها،ولكن دموعي قد سبقت خطواتي، وابتلّت وجنتاي ،تسمرتُ في مكاني ولا أدري ما الذي يحدث لي، أردت أن أنبس ببنت شفة ولكنني لم أستطع، اقتربت مني حتى أخذتني بين عضديّها، يا إلهي فمنذ سبع سنوات لم يقترب أحد مني إلى ذلك الحد، حتى نطقَت وقالت لي : أعتذر يا بنيّ، لتركك لوحدك، لهجركَ وأنت في أمس الحاجة إلى عائلة.

ابتعدتُ عن حضنها قليلًا وأمسكتُ بيديها، وبدأت أبكي بشراهة كالطفل الصغير : اشتقتُ إليكِ كثيرًا يا أمي، كدتُ أن أفقد عقلي بين الجدران هنا..

جففت أمي دموعها، وشعرتُ بترددها وذعرها المفاجئ، حتى نطقت بصوت مذعور : ما الذي تعنيه؟

-لا أفهم يا أمي، أعني أن العيش لوحدي قد جرّدني من الحياة فعلًا.

- كيف يحدث ذلك؟ ومزينة أين هي؟

- ما الذي تقصدينه بأين مزينة ؟ ألم تبقى مع جاد عند جدّي؟

- كلا يا بني، فقد سافرت منذ مدة طويلة إلى هنا، أي إليك.. يا إلهي أين ذهبت الفتاة!

شعرتُ وكأنّ حملًا ثقيلا قد أجثم على صدري، أمسكتُ بأمي وأدخلتها إلى المنزل، وأعطيتها كأسًا من الماء، كي تهدأ قليلًا

- كلا يا أمي، لم تأتِ أبدا، ولم تصلني أي رسالة منها، ولكن لماذا تتدعينها تقطع لوحدها كل تلك المسافات؟

- حكاية طويلة سأخبرك بها لاحقا، ولكنني سأجن فعلا، أين هي؟ أمن الممكن أن مكروهًا قد حدث لها؟ أقسم أنني سأفقد عقلي!

لم أعرف ما الذي عليّ فعله، أو الشعور به ، ما الذي قد حصل لأختي حتى لم تستطع الوصول إليّ، بكاء أمي ونحيبها قد آلمني، آخر مرة قد رأيتها تبكي هكذا كان على فقد أبي..

جاهدت كي أُهدّأ من روعها، حضّرتُ كوبًا من الشاي كي تشربه و تدفأ عظامها، ونجد حلًا للمشكلة التي قد وقعنا بها ،اقتربتُ من أمي، أخذتها في حضني، وأخبرتها بأنني سأجد مزينة وأجلبها إلى هنا، إلى

منزلنا، رفعت أمي رأسها وعيناها الذابلتان تتأملان ملامح وجهي، فرفعتْ يداها ووضعتُ رأسي بينهما، شعرتُ بأن روحي تحلّق وتغادر سردابها الحالك، أغمضتُ عينيّ، أردت أن تلامس كفيّها قلبي، أن تعوّضني ما مضى، أن أعيش هذه اللحظة بكل ما فيها، فحرّكتْ بإصبعها على خدّي، فنهضتُ جادًا.

فقلت : ماذا تريدين أن تتناولي يا أمي؟

-لا أشتهي الآن شيئًا.

- ولكنك قد أتيتي من سفرٍ متعب، هيّا أرجوك.

- لا تقلق، سأتناول الطعام، حينما أشتهي.

-حسنا، أتودين إخباري بما حدث؟

- سأخبرك بكل شيء، ولكن ألن تذهب إلى العمل اليوم؟

-بالحقيقة هذا أول يوم لي، ولكن لن أذهب وأتركِكِ اليوم بالطبع.

-أظن أنه هنالك الكثير من الأمور التي ستخبرني إياها يا عليّ.

- والكثير أيضًا يا أم جاد، بالمناسبة لماذا لم يأتي جاد معكِ؟

- تريد أن أبدأ من هنا إذا، لا بأس، قد تم الحجز على البيت الذي أشتراه جاد وسيارته، وظهر أن أخاك قد تورط في عمليات نصب وتزوير واحتيال، وتم سجنه منذ أسبوعين، والأموال التي نتكلم عنها تتعدى الآلاف، ولا أظن بأننا سنستطيع دفع كل تلك الأموال الباهظة، أي أننا لا نستطيع إخراجه من السجن أبدًا.

شرد ذهني لذلك اليوم الكئيب، لحالتي في السجن، ولاختفاء سامٍ بعده، كتمت غيظي، لم أستطع أن أشتم جاد الأحمق أمام أمي فهي حزينة بما فيه الكفاية، ولكن صوتًا قويًا قد خرج من المطبخ، فهرعت أمي ولحقت بها، فوجدنا أن كأسًا من طاولتي قد سقط أرضًا وتحطم. فقالت أمي والذعر قد تمكّن منها : كيف سقط الكأس؟

فقلت : لا بأس، لا تخافي ، يحدث هذا الأمر في لحظات سيئة ِكهذه دائمًا ،لا عليكِ..

تركتُ أمي تتجول في المنزل، فتارة أجدها تبكي وتارة أخرى تضحكُ فرحةً، فبعد أن أزلتُ الحطام عن الأرض، وقفت إلى جانبها وهي تتأمل غرفة مزينة.

وقلت لها : كيف حدث هذا الأمر؟

-قد خرجت في صباح ذلك اليوم من غرفتها، وهي تحمل حقيبتها على ظهرها، فقلت لها : إلى أين تذهبين يا مزينة؟ فقالت لي وهي تبكي : أريد أن أذهب إلى أخي عليّ، فقد سئمتُ من العيش هنا، لا أستطيع أن أحتمل كراهة جاد أكثر من ذلك، لم أستطع منعها فقد كانت مصرّة جدًا، وقفتُ مكتوفة الأيدي باكية، حاولت أن أثير عواطفها، وأن لا تقطع كل تلك الطريق لوحدها، ولكن عبثًا، لم تجدي أيٌّ من المحاولات نفعًا ..

- لا تبكي يا أمي، هدّئي من روعكِ، سأجدها مهما كلفني الأمر، ألم تصلكِ أي رسالةٍ منها ؟

-بلا ، أخبرتني أنها بخير وستصل إلى هنا قريبًا، وجئتكَ خاوية الوفاض إلا من المعاناة والشدائد يا بني.

- لا تقولي هكذا أرجوكِ، سأصلح كل شيء، أعدكِ.

اتصلتُ بمدير العمل، وأخبرته بما حدث معي، وعاهدته بأنني في صباح الغد سأكون في مستشفى الحرية بإذن الله.

بدا لي المنزل غريبًا منذ دخول أمي إليه، أشعر بطاقة غريبة، أظن أنها قوية، فأمي التي حرصت أن تلم شمل عائلتنا بعد وفاة أبي، وتدهور وضعنا المادي، قد اتخذت قرارًا قويًا بالهجرة، لم تصغي إليّ حينها، لم تسمح لي بإبداء رأيي، أي في الحقيقة لم تكن تثق بي بما فيه الكفاية، كنتُ الطفل المدلل بنظرها، المغتر بتصرفاته، الذي يفعل ما يفكر به وليحترق العالم بعدها، وكان أخي جاد العقل المدبر، لا أدري إلى أي حال قد وصلنا إليه الآن، ولكنني كنت أظن بأننا قد افترقنا إلى الأبد، ولكنها الآن تنامُ مستندة برأسها على كتفي..

حاولتُ إيقاظ أمي ووضعتها على سريرها، وخرجت لأشتري بعضًا من الفاكهة والخضراوات واللحم والخبز، تذكرت بأنني لم أقم بذلك لوحدي قط، فلقد كان سام يرافقني على الدوام، تسكعت في الشوارع علّني أجد طيفك وأحتمي به، ووجدت نفسي واقفا أمام شجرة الشولة، قطفت ثمرتان ورميتهما في البئر كما أفعل في كل يوم، ،قد أصبحت شخصًا لا يشبهني في الآونة الأخيرة، أسير بلا

اتجاهات محددة، بلا توازن، أتمايل كخيال المآتة، شاعرًا بغصةٍ في حلقي، ولكن مفأجأة أمي في هذا الصباح قد أضفت عليه رونقًا لم ألتمسه في حياتي منذ زمن بعيد..

أسندت رأسي على شجرة الشولة مغمضًا عينيّ، أفكر في حلول للمشاكل التي تملأ فوهة رأسي، وتغرقني بالندوب والشكوك ابتداءً من حادثة سجني مرورا باختفاء سام وانتهاءً بعدم وصول مزينة إلى الآن، وزج جاد في السجن، قد شعرت بقطرات من الماء تتساقط على رأسي، مسحتها ونهضتُ فزعًا، لم يكن مطرًا، بل كان ماءً يخرج من البئر باندفاعٍ قويّ، تذكرت ما قيل عن هذا البئر قديمًا إنه يروي شجرة الشولة في كل اثنين، ولكنني أراه للمرة الأولى ، يا لها من معجزة كيف تخرج المياه من هذا البئر الذي لا يمتلئ حتى في فصل الشتاء، ومن أين أتت كل هذه المياه دفعة واحدة، حتى أن العملية بأكملها لم تتعدى بضعة دقائق، اقتربت منه، وأنزلت يدي حتى لامستُ الماء الذي بدأ يتناقص للتو، حرّكتُ يدي، وأمسكتُ بشيء صغير قاسٍ، فالتقطتُ ما استطعتُ التقاطه منه، حين رفعتُ أمام ضوء الشمس، عرفتُ أنه نوى ثمار الشولة، لم أصدق ما رأته عيناي للوهلة الأولى ، من أين تأتي كل هذه النوى، ضحكت وتركت اندهاشي جانبًا، لأن كل ما يحدث هنا مبهم، مُلغز، فَلِمَ أتوقف عند هذه النوى ! حبًا لله..

عدت أدراجي إلى المنزل محملًا بالكثير من الأكياس، كما لم أفعل من قبل، رنّ هاتفيّ المحمول، فأنزلت الأكياس أمام باب العمارة، ودفستُ يدي في جيب سترتي الداخلية، وأخرجته، قد وصلتني رسالة، أعدت قراءتها مرتين للتو :" ظننتك مهزومًا، هزيلًا، وقد أثبت ذلك يا عليّ، أين تلك الحلول المنطقية التي تتخبط بداخلك طوال اليوم، من عملك لإخوتك لسام، إلى متى ستنجر خلف عاطفتك وحماقتك، تحرّك حالًا، سئمتُ من مداراتك"..

أومأت برأسي بحركات سريعة بعلامة الفهم ، على الرغم بأنني لم أفهم مقصده، وإلام يصبو، أريد أن أعرف من أنت أو بالأحرى من أنتم، أيًا كان ! لأنني سألتهم نفسي من شدة الغضب والقلق الذي يسيطر عليّ حينما تصلني رسالة ما، تبقى في ذهني طوال اليوم، لا تفارقني البتة، تصارع جمود فكري، تريقُ زيتًا على ناري، تجعلني أواجه نفسي ، أين أنا ؟ ما الذي أفعله؟ ما الذي أريد أن أتوصل إليه؟ إلامَ أسعى؟ ما الذي أملكه؟ فاتخذ قرارًا ما، وبعدها أجد نفسي أمام طرد على باب منزلي، مرفق بملاحظة ما، فيزداد غيظي، فأجدني بعد ذلك قد اصطدمتُ بقرارين متضادين ،فأفر إلى إحداهمًا مكرهًا أو إلى الآخر لاجئًا.

فنكزني الحارس من ورائي ليهنئني بعودة أمي، وساعدني في نقل الأكياس، شكرته ولكن طلب مني أن يلقي التحية عليها، فتحت أمي الباب، فوجدت بين يديها طردًا صغيرًا، كتمتُ دهشتي، لم أعرف ما الذي سأقوله وضحكت فقلت: تفضل يا عمّ، فرفض قائلا : كلا، لا أستطيع، فأمك بحاجة إلى راحة

من سفرها، توجهت نظراته إلى أمي وتابع :حمدًا لله على سلامتك يا أم جاد، فليجمعكم الله جميعًا في بيتكم مجددا، ورحم الله أبا جاد، ورددنا عليه بأدعية كثيرة، فخرج وأغلق الباب من وراءه..

عاونتني أمي في نقل الأكياس إلى المطبخ، فقالت ما ذلك الشيء يا عليّ، تجاهلت سؤالها الذي لا أملك إجابة له، وقلت : ما الذي تشتهينه يا أمي كي أعده حالا؟

-أمن الممكن أن يكون بداخله هدية، أم وجبة لذيذة، أو من الأفضل أن تكون حلوى..

- تريدين شيئًا لذيذًا، وحلوى، إذًا سأحضّر دجاجًا مقليًا والسلطة التي تحبينها، وسأصنع حلوى الشحمية فإنكِ تحبينها كثيرا.

- صغير جدًا، لا يمكنه أن يتسع لكل ذلك، يكفي أن يكون به ما يهدأ أرواحنا، مثلا كلامًا أحتاج سماعه بشدة.

غسلتُ يداي من بعد أن انتهيت من تفريغ الأكياس، واقتربت من أمي، وتركتُ يداي تلامس كتفاها.

- تحتاجين كلامًا جيدًا أيضًا، إنكِ أفضل أمٍ على الإطلاق، أميرة منزلنا، مهجة أرواحنا، صادقة طيبة وفوق كل ذلك جميلة جدًا..

- لا أقصد ذلك يا بنيّ..

- ولكن ، يا أمي إنكِ كذلك فعلا.

-أقصد هذا الطرد، حالما رأيته تأملتُ خيرًا بشأن مزينة..

- أرجوكِ يا أمي، لا أريد أن أشتت ذهنكِ أبدًا، لا صلة لهذا الطرد بإخوتي..

- ما الذي تعنيه بذلك؟

- لا أعني شيئًا، ولكن يصلني مثل هذا الطرد كل يوم..

- ومن مَن؟ ولماذا؟

-لأكون صادقًا، لا أعلم.

-أتكتفي بلا أعلم ؟

- لا بأس، إن كنت أجد به ما يرغمني على إتخاذ قرار عاطفي ما..

فاطمة الشاش

حضّرت الطعام والحلوى وبعدها تناولنا طعامنا سويّة على طاولتي المليئة بالكؤوس الزجاجية التي قلّت إلى النصف في الآونة الأخيرة، منها من أحزنني تحطمها، ومنها من لم أكترث بها، ومنها من انتظرت أن تلقي نفسها إلى الأرض لأتخلّص من عبئها، فهي تأخذ حيزًا لتعيق الأخريات فقط..

كان طعامًا صامتًا والحزن يحول بيننا، بلا حراك ولا يُسمع إلا صوت الملاعق التي تقرع في الصحون، لم أعهد أمرًا كهذا من قبل، شعرت بالغربة والخوف، بالحاجة الماسة لفكّ العقد ورؤية الحقائق التي تغيّبت عن ناظري، لألمس جراح أمي، لأتيه في ملامح وجهها وحال بيننا ذلك اليوم الذي قالت لي به بأن قبل أعوام قد خضعت لعملية زراعة كلية حينما كنت صغيرًا، ولذلك عليّ أن أنتبه لصحتي جيدًا، ولكنني لم أكن أعي بأن الكلية لا أستطيع زراعتها إلا بقيام أحد ما بالتبرع لي بكليته، وبقيّ ذلك الشخص مجهولًا عني لأسباب أجهلها، وعرفت بأن المتبرع كان أبي في اليوم الذي تعرّض فيه للحادث الذي أودى بحياته، حينما قال الطبيب بأنه قد أصيب إصابة حادة في كليته الوحيدة، شرد ذهني في ملامح وجهي أمي مجددًا، كيف أنها لم تستطع أن تضمني إلى حضنها حين سماع خبر وفاة أبي، وبعد هذه المصيبة قد أصبحنا كالأجسام المتضادة، فلم تتقبلني رغم محاولاتي البائسة، ولكنها هنا أخيرا، إلى جانبي..

رفعت رأسها مبتسمة في وجهي قائلة : أشكرك يا بني على هذا الطعام اللذيذ، وتابعت ضاحكة : أدركت جيدًا لماذا سام محظوظ بك يا عليّ..

شعرتُ بأن سكين قد غرزت في صدري وخرجت للتو من حيث أتت..

- آه يا أمي، لو أنكِ تعلمين، كم أن حظنا عاثر..

- لا تقل هكذا يا بني، يكفي أنكم أصدقاء وتحبون بعضكم البعض.

- ولكن المُعضلة...!

- تابع يا عليّ, ولكن المُعضلة ماذا!!.

- لقد اختفى سام بين عشية وضحاها.

- كيف وأين اختفى يا بني، أبحثتم عنه في كل مكان؟

-لم ندعَ مكانًا إلا وبحثنا فيه على سام، في المستشفيات والسجون والشوارع، في كل مكان يعرفه، أو حتى بكل الأماكن التي من المستحيل أن يتواجد بها، ولكن عبثًا.!

- يا إلهي ما الذي أسمعه..وتابعت بصوت متحشرج :وإنه ليشقّ عليّ سماع كل تلك الأخبار المحزنة دفعة واحدة..

فبدأت بالبكاء وقالت: منذ متى؟

-قبل عشرة أيام .

-لا أستطيع التصديق بأن شابًا كمثل سام، يختفي فجأة، بلا سابق إنذار، فهو رجل أفتخر به حقًا، أخشى أن مكروهًا قد أصابه!

-لا أعلم يا أمي وفي كل يوم أكتشف بأنني لا أعلم شيئا..

فدنوت منها وأخبرتها بكل ما حدث معي، فلم تتوقف عن ذرف الدموع، ولكن شعورًا خفيًا قد داعبني ،لدَي من يحبني رغم كل هذه المعاناة.

قبّلتها من جبينها وأخذت الطرد إلى غرفتي بعد أن وضبتُ الطعام وغسلت الصحون، فلم أشعر بأنني على استعداد بفتحه أمام أمي، فما زالت تلك الجدران التي بيننا تحرّضني دومًا على الفرار، وإيجاد الحلول بنفسي، وضعته بين يديّ وفتحته فوجدت لعبة صغيرة تشبه أميرات ديزني، تنظر إليّ مبتسمة، وقد كُتب على ذراعها، " سنتخطى كل شيء، ولكن عليك أن تؤمن بعاطفتك الشابة، أن لا تسمح بإحزان أمك، وأصلح كل شيء، حتّى وإن لم تجري الأمور كما تشاء".

......

(17)

ولكنني كأي فتاة قد ارتأت طريقًا خصبًا طوال حياتها ، تركض لاهثة بلا اكتراث خلف أحلامها وبما تؤمن به، ،تجدُ في نفسها طاقة هائلة تحرّك أشرعة سفنها وتنطلق في رحلتها أيًا كان مسيرها، شابة جدًا، قوية أيضًا ، ولكنّ الجفاف قد اقتحم الزرع قبيل الحصاد، يخيفها المرض والتزام السرير، فهو يقصقص أجنحتها التي اعتادت على التحليق بهم دومًا، وذهب كل شيء هباءً منثورًا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، وها أنا أعيش أيامًا غير متزنة في هذه الغرفة التي تحتوي سريرًا ونافذة واحدة تطل على حديقة المشفى، ومصلًا في وريد يدي، مرهقةً هزيلةً لا أقوى على فعل شيء، تتخدّر قدماي، مسببة لي آلامًا شديدة، فأعجز عن الحركة، حتى أنني قد فقدت الكثير من وزني في الأيام الأخيرة، وبقيتُ مسطحة كلوح من الخشب، وكلما تستبدُ بي هواجس الليل أبكي ذعرًا من أن تنتهي الحياة عند هذا الحد، أي الحد الذي لم أفعل به شيئًا يعيش لحياة لن أعهدها ، لم أكتب كلامًا يؤثر إيجابًا في حياة الغير، لم أمدهم بمساعدة علمية أم مادية لتحسن من أحوالهم، لم أزدهم علمًا وأفقههم دينًا، أي أنني سأذهب خاوية الوفاض !..

عندما سمعتُ صوت الباب يفتح، جففت دموعي، ألقى الطبيب التحية، وبعينيه يُطالع نظراتي التي تشبه نظرات قط مطارد، اقترب مني وقال : لدّي خبران لكِ.

- أتستطيع أن تجعل من أحدهما جيدًا؟

- أستطيع قول نعم، إن استطعتي أن تنظري بثقة مجددًا.

- لا أعدك، ولكن ما هما؟

- لنبدأ بالجيد لقد تم تأمين علاجكِ، وإعطاءكِ إعفاء أي لستِ بحاجة لمد يد المساعدة من أحد.

- أشكرك يا حضرة الطبيب، لأنك قد سعيت بذلك من أجلي..

- في الحقيقة يا مزينة، بأن شخصًا قد سمعنا نتكلم بالقرب من غرفتكِ قبل أن تعلمي بمرضكِ، فعندما علم بقصتكِ، أصرّ أن يدفع كل ما يستطيع دفعه، وبعد ذلك قبلت إدارة المشفى بالتكفل بباقي المصاريف..

- يا إلهي ومن ذلك الشخص؟

- لا أعلم، لم يعرّف بنفسه، حتى أنه لم يرد أن تريه، كي لا تشعري أنكِ ممتنة لأحد.

- اللهم أنله حياة جميلة بقرب أحباءه ولا تحوجه لأحد، ولكن ما الخبر الآخر..

- أنكِ مصابة بالساركوما العظمية، ولكنّ بعد أخذ خزعة من الورم قد تبين بأن الورم لم ينتشر في أية أعضاء أخرى، وبأن خلايا الورم تنمو ببطء، فسنبدأ بالعلاج الكيميائي في صباح الغد؛ لأن هذا النوع من العلاج يعمل بشكل أفضل عن غيره في حالتنا هذه، وبإذن الله ستصبحين على ما يرام..

لم أقل شيئًا عدا أنني أومأت برأسي بالإيجاب ، شعرتُ بالامتعاض من نفسي، وبالهوّة التي قد وقعت بها وأصبحتُ مثيرة للشفقة، عديمة حيلة، حتى أنّ الشخص الذي مدّ إليّ يده ليساعدني، سأبقى ممتنة له طوال عمري حتى إن لم أعرفه ولم يعرفني.

...

(بعد مرور ثلاثة أسابيع..)

بلا رغبة مني، تتسربُ أشعة الشمس إلى نافذتي..

فأرى ظلي الضعيف على الحائط الخلفيّ، أحملقُ في مشط شعري من غير تركيز، أحملق أكثر في خصلات شعري العالقة فيها ، لقد تساقط منه الكثير في هذه الفترة، حتى شعرتُ بأنني سأبقى بلا شعر أسرحّه، ولن أحتاج إلى مرآة لأنظر بها إلى وجهي الذي تقلّص ، وعيناي الغائرتان، فقدت من وزني خمسة عشر كيلو جرام بعد أربع جرعات من العلاج الكيميائي، كنتُ أفرح تارةً لأن النوع الذي أصابني من الممكن معالجته، وأحزن تارة أخرى على الآلام الجسدية والنفسية التي أعاني منها، فلم يعد هنالك أي مذاق للطعام ولا حتى للماء الذي أشربه، فالتقيؤ والغثيان وقلة التركيز وفقدان الشهية لم يدعونني وشأني، فأبذل جهدًا لأتم صلاتي وفي كثير من الأحيان ينقطع نفسي ولا أستطيع أن أحرّك عضوًا واحدًا في جسدي، الشعور بالوحدة والمعاناة بمفردي كانت الأكثر فظاعة في مواجهة المرض، نُقلتُ إلى غرفة أخرى وذلك بطلبٍ من الطبيب المختص بحالتي، لكي أروّح عن نفسي مع مريضة أخرى مصابة بالغدة الليمفاوية..

تعلمتُ أن التقبل أفضل من مواجهة المرض وكسره، فرضيتُ بالقدر خير وشره، فكان ذلك كفاحًا من أجل أن أرى عائلتي مرة أخرى، فتمنيتُ أن أسمع صوت أمي وهي تدعو لي، ووجود عليّ بقربي يخبرني بأنّ كل شيء سيكون على ما يرام مجددًا ..

أظنّ بأنَ من حق عائلتي معرفة مكاني وما يحدث لي، أي بالأحرى لا أريد أن أموت لوحدي.

(18)

وجدتُ نفسي بين دهاليز المشفى أتابع العمال ،و أحاول جاهدًا أن أتأقلم بينهم ، فلم يعد أي شيء كالسابق، تعثرت كثيرًا ولكنني أسعى لإثبات نفسي يومًا بعد يوم، أي أن خبرة تلك السنوات في البرمجة لم تجدي نفعًا بعملي المؤقت في مستشفى الحرية، خطر في بالي كثيرًا أن أذهب وأطمئن على الفتاة الناجية من حادث القطار، ولكن شيء ما يدفعني لعدم الاقتراب، فأخاف أن أشعرها بأنها ممتنة لي، حتى وإن عرفت اسمها لن أتوقف حتى وأبحث عنها في مواقع التواصل الاجتماعي وأتوصل إلى الكثير من المعلومات، ولكنني لا أريد حقًا، يكفيني ما أبحث عنه منذ وقت طويل ولا أجد أي أثر لهما، حتى وإن ابتلعتهما الأرض سيصدران صوتًا ،ولكن أين!

لم أخبر أمي بتفاصيل ما حدث معي سابقًا، أي أنها ليست بحاجة لهموم أخرى تبكي من أجلها، مرّت ثلاثة أسابيع ولم أحل عقدة واحدة بعد، لم يكن خيار الإنهيار متاحًا ولكنني كنت مجبرًا على التجاوز، على أن أضمد جراحي وأقف صامدًا حتى وإن كان داخلي يفيض هشاشة !..

بدّلت ملابسي بعد انتهاء العمل، وسنحت لي الفرصة لإلقاء نظرة إلى هاتفي المحمول، فوجدت رسالة جديدة قد كُتب فيها : "أعلم أنك لست على ما يرام، ولكن أود أن أذكرك بأنك مجبر على العمل لجني النقود، وعلى الإهتمام بأمك وبعائلة سام، والبحث عن طريق جيد تمضي به".

أردت أن أحطّم الهاتف هذه المرة، ولكن ليس باليد حيلة لجلب هاتف جديد، آلمني رأسي من الكم الهائل من الرسائل التي تأتي في كل حين، بأي وقت، على الرغم من أنني في كل مرة أحظر الرقم ولكن بلا فائدة..

وقفتُ في مكان انتظار الحافلة، كي تقلني بأسرع وقت ممكن، لأنني لا أقضي أيامًا جيدة في المشفى، ففي كل مرة أرى نقطة دماء على أرضية المشفى أو على سرير ما، تتشنج قدماي، وتسودّ رؤيتي، وأشعر بدوار شديد، وكأن أحدًا ما يهرول في مؤخرة رأسي، أرتمي أرضًا في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى أفر هاربًا كسجين يطارد من قِبل معتقليه، فألتجأ إلى السلالم وأجلس منطويًا على نفسي، وركبتاي غارقتان في صدري ، كمنتشٍ لا يطاوعه عقله بالهدوء ولا قدماه بالجلوس..

حينما وصلت الحافلة ارتديت حقيبتي التي أحملها على ظهري أينما ذهبت، فوجدت كرسيًا فارغًا فهرولت بناحيته وركنتُ رأسي على النافذة المغلقة المغبرة، وشردت كما أفعل دائمًا بلا إدراك، أتأمل الفراغ الهادئ المحيط بي، وأمدُّ بيدايّ لألتمس نجمةً لامعةً أضمها إلى صدري، فيطفئُ لهيبها أحزاني

ويرممُ لمعانها قلبي، فنهضت كمن وكزته عصا عجوز، مرددًا الشولة يا صاحبي الشولة من فضلك الشولة، فتوقفت الحافلة ومشيتُ صوبَ الأرض المعجزة ،حينما وصلت رميتُ بحقيبتي أرضًا، اقتربت من شجرة الشولة فلم أجد ثمارًا قريبة تطولها يداي، أصبحتُ مرغمًا على تسلق الشجرة، بالرغم من أن احتمال وقوعي على الأرض وارد جدًا، تشبثت بأول غصن لها فكان متينا للغاية، ورفعت يداي فبعد عدة محاولات التقطت ثمرة واحدة ورميت بها من أعلى الشجرة إلى البئر، على الرغم من كل المحاولات البائسة في الحصول على المزيد من الثمار، غضبت وكأنني ملزم على فعل ذلك، حاولت مجددًا وتسلّقت هذه المرة أكثر، مددتُ يداي والتقطت ثمرة أخرى، ورميتها بأكبر قوة لديّ في البئر الذي أراه للمرة الأولى من الأعلى، لا أصدق بأنني قد فعلتها، فلطالما حلمتُ بأن أتسلق هذه الشجرة، وكان سام يسخر من حلمي البائس، توخيتُ الحذر حينما أنزلت قدماي وجلست على الغصن، كانت الساعة الثامنة مساءًا، والليل قد ادلهم، وضوء القمر الخافت أشعرني بالأمان، ولكن الرياح القوية الباردة قد اخترقت جسدي، فأصبحت ارتعش، وبالرغم من كل ذلك أصررت على البقاء فوق الشجرة في هذه الظلمة، تمعنتُ النظر بكل ما حولي، أرخيت يدي على الغصن، محركًا إياها يمنة ويسرة، متمنيًا أن يحل مكان الفراغ سامًا، أن يطير من سمائه نحوي، وحينما يجلس بجانبي هنا، يخبرني بكل ما جرى بأدق التفاصيل، وبكل الأمور الذي فعلها! ما هي طبيعة الناس الذي ألتقى بهم؟ ما الذي تناوله وشربه خلال هذه الأربعون يومًا؟ وبعد ذلك يحملني على جناحيه ونطير إلى المنزل، وأغدر به في حين نومه وأقصّ جناحيه، كي لا يحاول التحليق مرة أخرى..

آه منك يا علي، قد دوهم عقلك فعلًا وأصبحت تهذي تمامًا، فتشتُ في جيبي عن هاتفي، فوجدتُ عشرات الرسائل القلقة من أمي، وأخبرتها بأنني سأعود إلى المنزل بعد قليل، فقد طال عملي قليلًا..

سمعتُ صوتًا قويًا من ناحية البئر، فكان البئر يتدفق منه الماء، فصعقتُ، شغّلت مصباح الهاتف فكان الماء يخرج بقوة من البئر، ولكن اليوم ليس يوم الاثنين، ما الذي يعني ذلك؟

قفزت من الشجرة، وتأوهت من شدة الألم الذي ألحقته بقدمي، ولكن للأسف لم أستطع اللحاق فكل شيء قد عاد إلى مجراه الطبيعي، وكأن شيئًا لم يحدث .

هذا يعني بأن ما يقوله الناس عن البئر ما هي إلا خزعبلات، وإلا فكيف تخرج هذه المياه في يوم آخر، اقتربت أكثر من البئر وأمسكت بيدي التربة المحيطة بالبئر، فكانت مبتلة ،رفعتُ حفنة من التراب ووجهت الضوء نحوها، فوجدت نوى ثمار الشولة، كأن أحد ما قد أكلها، ارتجفت يداي، أصبحت موبوئًا بمئات الخرافات المسمومة منذ أن وطئت هذا المكان، ارتعش جسدي، أصبحت أصرخ بداخل البئر هل من أحد هنا؟

بكيتُ من جسارة أمنيتي، وأصبحت أصرخ بأعلى صوتي!

إن كان أحد ما في الداخل فليصدر صوتاٍ أن يفعل أي شيء حبًا بالله، للوهلة الأولى تمنيتُ أن أستعيد وعيي وأن أذهب إلى البيت سريعًا، ولكن بعد ذلك بلحظات تجمّعت مئات الأفكار الأخرى أي أن من الممكن أن يكون أحد ما بداخل البئر!!

خرّت قواي من الصراخ ، تأملتُ بأن المعجزات تؤتي بالمعجزات الأخرى، حتى بكيت، فجررت قدماي نحو المنزل ، كنتُ مكدودًا متألمًا فوجدت طردًا صغيرًا أمام باب المنزل ،فجلست أرضًا أمام الباب، وفتحتُ الطرد فوجدت مصباحًا صغيرًا مرفقًا بملاحظة صغيرة " ثق بإحساسك العظيم، حتى لو كلفك الأمر أن تجري خلف ضوء خافت"..

رميتُ بالمصباح أرضًا، وركضتُ إلى مبنى الشرطة قائلا بأنه هناك اشتباه بوجود إنسان بداخل البئر في الأرض المعجزة..

بعد إصرار كبير قَبل رئيس القسم بالتحرك فورًا، وجلبوا المعدات وكل ما يلزم إن كان في الحقيقة يوجد شخص في الداخل، أناروا المكان وتجمهر رجال الشرطة حول البئر، وأخرج المسعفين العدّة اللازمة، الإنارة والحبال، ونزل رجلان إلى داخل البئر، والجميع في انتظار إشارة منهما، حتى رنّ أحدهما على رئيس القسم قائلا بأنهم قد وجدوا رجلًا بالداخل يلتقط آخر أنفاسه، تشتت ذهني، حتى سمعت صوت نبضات قلبي المرتجفة، خرج الرجال من البئر ووضعوا الرجل على النقالة، لم أتعرفّ إلى ملامحه جيدًا، فكانت ثيابه ممزقة مهترئة، وشعره أشعث أغبر، ويداه ترتجفان، وجسده مليء بالأوساخ والأتربة، اقتربت منه مذهولا مما أرى، حتى نطق قائًلا : يا عليّ، فما إن سمعته حتى أغشي عليَّ.

...

(19)

تبدو السماء حالكة وسط النهار، وهذا ما يثير دهشتها، ويدعوها للاستهجان، كما لو أن دخان القطارات والسيّارات والسجائر وثاني أكسيد الكربون، والحقد الذي يكمن في جوف الانسان قد تسلل إلى السماء، وشكّل طبقة سمكية مسودّة قاتمة، فلم يعد هناك أي انعكاس يُبدي لنا الجمال الساحر الفتّان.

ولم تعد هناك أيُ انعكاساتٍ حقيقية أو غير ذلك، تجعل من الشر منارة خير، ومن الرذيلة حسنة تخفف من الأعباء المكدّسة على أكتاف الأنقياء.

ومن الحريق الناشب في صدرٍ قد يأس من إخماد وجعه .

فلم يعد الليل صديقيَ الحاني الذي يحملُ عنّي ويداري ألمي، أي أظن بأنني لم أستطع أن أدرك مقدار السعادة المركنة في الجانب الآخر، وأصطنع ضحكتي المزيفة، ولكن الوحدة جعلت مني إنسانًا آخر، يتفقد فيها القلب العقل، وتمسحُ الأيدي ضرر الجوارح، بصبرٍ عظيم، وبهمةٍ أعظم.

منذ يومين وأنا أخبر الممرضة بأنني أريد رؤية أمي وأخي، ولكنها تنشغل بأمور أخرى فجأة، لا أعلم متى أستطيع رؤيتهم، ليخمدا لهيب أحزاني، ضغطتُ بغضبٍ على الزر المرفق بجانب السرير، فهرع الطبيب والممرضة إليّ حتى ظنوا بأن تطورًا ما قد حصل، ولكنني وجهت كلامي للطبيب وقلت له : أرجوك أيها الطبيب منذ زمن وأنا أخفي عليك هذا الأمر، ولكن يكفي إلى هذا لحد، أريد رؤية عائلتي، أمي وأخي! إنهم أحياء ،ولكنني أردت أخفاء ذلك، لأنني كنت خائفة من أكون عبئًا ثقيلًا عليهم، فأنتَ تعلم بأنني أصبحت قوية، وأنني سأجابه هذا المرض وأنتصر، امتلأت عيناي بالدموع، أخذت نفسًا عميقًا، ومسحت وجنتاي بيدي، فنظر الطبيب إلي نظرة شفقة وحزن وقال :لا تقلقي، سأتابع هذا الأمر بنفسي، وسأخبرك بأصغر التطورات، ولكن يا عزيزتي مزينة، أما آن الأوان أن تخبريني باسم عائلتك، وأمكِ وأخاكِ ؟

سأخبرك أيها الطبيب، ولكن أرجوك أن لا تخبرهم شيئًا مما حصل لي.

فقال الطبيب : اتفقنا أيتها البطلة..

تأملت ما حولي، وبدأت أبكي كطفلة صغيرة تبعثرت ثيابها، تقوقعت على نفسي، وبدأ جسدي يبرد وكأنني قد ألقيتُ على قارعة الطريق والرياح تلفح وجهي، والمطر الغزير يتساقط على جسدي، ولكنني شددت اللحاف إليّ بقوة، وأخرجت رأسي مجددًا وكل من في الغرفة في حالة ذهول، وكأن ما تقوله عيونهم، ما الذي يحدث لهذه الفتاة؟ ما الذي يصيبها؟ من المحتمل أنها قد فقدت صوابها؟

أردت أن أُبعد هذه النظرات عنّي وأشتتها، فخرجت أخيرًا من جوفي عدّة كلمات وقلت : اسمي مزينة البراء، لدي أخ فقط واسمه علي، يعيش مع أمي في قرية صغيرة بعيدة جدًا، في حي صغير..

كتبتُ للطبيب على ورقة المكان الذي أحفظه، ووعدني بأنه سيجلبهم في أقصر وقت.

شعرت للتو بأنني أفتقد تفاصيلًا كثيرة، وهذه للمرة الأولى التي أتفكر بها، أي ما الذي جاء بي إلى هذا القطار؟

كنتُ في حضنِ أمي تداعب شعري، وتخبرني بأنني أجمل فتاة في قريتنا، ويدخل عليّ علينا حاملًا بيديه ما أشتهي من الفاكهة والحلويات، وأركض نحوه ويأخذني بين يديه إلى صدره الدافئ، لا أعلم ما الذي دفعني لتركهم لوحدهم، ولكنني أعرف شيئًا واحدًا فقط بأنني عندما علمتُ بمرضي ذعرت وقلقت جدًا ،ولم أستطع أن أشارك عائلتي بالأمر، ولكن ما يقلقني الآن أين هم؟ لماذا لم يبحثوا عني طيلة هذه المدة؟

(20)

حينما استعدتُ وعيي وجدت رجل الإسعاف بجانبي يسألني كيف حالك الآن ، ما الذي حدث لك؟

حاولت أن أنطق ولكن الأمر كان أكبر من نطقي، فصمتُ، ورفعتُ نفسي من على الأرض، وتلفتُ حولي ولم أجد أحدًا، تشبثتُ بمعطفي، ابتسمتُ وكأنني قد رأيت حلمًا غريبًا للتو، فوجهتُ سؤالي للمسعف قائلًا : لماذا أنت هنا يا صديق، فاقترب مني، وربّت على كتفي، وقال : نحن هنا بسبب بلاغك، أحسنت يا علي، قد أنقذت روحًا من الموت قبل قليل.

شعرت وكأن أحدًا ما قد ضربني على رأسي مجددًا، وبأن ما رأيته لم يكن حلمًا عابرًا، بل كان حقيقة قد رأيتها بأمّ عيني.. تقبلت الأمر، وهرعت نحو المشفى الذي نقلوه إليه أجوب في أروقته ودهاليزه، وفي آخر الأمر وجدت الغرفة التي يتواجد بها، ولكنهم لم يسمحوا لي بالدخول، جلست أرضًا بالقرب من الغرفة، وأسندتُ رأسي على الجدار المجاور، فغالبني النوم، وأسدلتُ جفوني، وكأنه كان خياري الوحيد لمرور الساعات بلا أن أفقد صوابي، استيقظتُ على صوت الممرض وهو ينده لي : أيها الرجل، استيقظ ! كان الفجر قد حلّ، وقفت بصعوبة وأنا أفرك عيني، ونطقت شفتاي الجافتان المتشققتان : أيها الممرض ما الذي حدث للرجل هنا؟ وأشرت بيدي إلى الغرفة المجاورة، فقال لي : لقد خضع لعمليتان متتاليتان، وهو يرقد نائمًا الآن.

مسّدت صدغي لأكثر من مرة، ورفعت سترتي من على الأرض وأخذتها بيدي، اقتربت من الممرض وقلت قلقًا : وكيف حاله؟ هل أصبح بخير؟ أأستطيع رؤيته؟ أرجوك أيها الممرض، أريد أن أراه، وبدأت دموعي تنهمر على وجنتّي ولم يتبقى لدّي قوة لمسحها أو منعها، فقال الممرض مواسيا : لا تقلق، هو أفضل حالا الآن، ولكنك ستنتظر إلى حين أن يستيقظ وسأخبرك فورًا!

أصبحت أجوب الرواق يمنة ويسرة، لم يدم ذلك طويلًا، حتى استطعت الدخول إلى غرفته، فقد كانت غرفة معتمة وفاكهة الشتاء (الشمس)، يختلس ضوءها النافذة، أخذت نفسًا عميقًا، ولكن ما زال في داخلي أشياء كثيرة ترغمني على التنحيّ والهرب، ورنّ الهاتف وكان صوته صاخبًا جدًا في هذه الغرفة الهادئة، استلمت رسالة وقد كُتب فيها " لن أرغمك على فعل أي شيء، ولكن تحرّك حالًا إلى ما تراه صائبًا، وليس مخيبًا للآمال"، أردت أن أشتم بصوت مرتفع، ولكنني كظمتُ غيظي مكرهًا، اقتربت من السرير، كان وجهه الوديع مصفرًا، وقد حلقوا له شعره، وغصّ في نوم عميق بعد خضوعه للعملية، أمسكت بيده، شعرت وكأن قلبي قد خرج من موضعه، بكيت وشددتُ على يديه فسرى دفأهما إلي، كنتُ أحمل باليد الأخرى الطرد الذي وجدته بجانبي وأنا أنتظر أمام باب الغرفة، تجاوزني الشعور ورهابته، أرجوك استيقظ يا عزيزي سام، أناديك باسمك وقلبي مرتجف، وعيناي الغائرتان تحومان حولي، أريد أن أصرخ ولكن لا أستطيع أن أشاركك بأي أحد آخر الآن، للتو قد فقدت عقلي وقلبي، ولكن بفضلك قد استرددتُ عافيتي، يا أحلى مرّي، قل لي ما الذي حدث لك؟ أتسمعني ؟ أخبروني في الخارج بأنك قد استيقظت ولكن عيناك الجميلتان قد غفوتا مجددًا أم ماذا لا أدري؟

استيقظ وأخبرني بأنك على ما يرام، داعب يداي، وامنحني فرصة جيدًة اقتاتُ منها عيشي، عدّ وشاركني فرحي، فلا مزيد من الدموع البائسة والتوسل المذل بعد الآن..

أرجوك يا سام، وكم من الصعب أن أنطق باسمك بداخل هذه الغرفة التي لا روح لها، اعتدتُ أن نلهو ونضحك ونعدو، حتى بكاءنا كان حلوًا يضاهي مرارة هذه الأيام..

أسندت رأسي على رأس سام، ولم أفلت يداه، شاركت الخبر السعيد لعائلته وأمي على الفور، تأملتُ الطرد الذي تركته على طرف السرير، ونهضت لأرى ما به، فتحته، وأنا أختلس النظرات إلى سام ، وجدتُ بداخله دميتان أيديهم ملتصقتان، وقد كتب على يد إحداهما " هنيئًا لك يا علي، فها هو يشدّ على يداك مجددًا".

وضعتهما على الطاولة التي بجانب سرير سام، قررت الخروج من الغرفة قبل وصول عائلته والانتظار بالخارج، ولكنه قد تردد صوته في الغرفة قائلا: علي!

ركضت نحوه وعانقته وانهلت عليه بالأسئلة: حمدًا لله على سلامتك يا صاح! كيف لك أن تبتعد عني كل هذا الوقت؟ كيف سقطت في البئر! أرجوك أخبرني كيف حدث كل هذا لك؟

-تمهل قليلا يا علي، لا تقلق سأخبرك بكل شيء! ولكن كيف علمتم بأنني قد سقطت في البئر؟

-حكاية طويلة، ولكن الغريب في الأمر يا صاح بأنني كنت أجلس بجانب شجرة الشولة في كل يوم منذ أول يوم قد فقدناك به!

-أيعني بأن ثمار الشجرة لم تكن تسقط لوحدها في البئر؟

- كنتُ أرمي بها في داخل البئر قهرًا وقلة حيلة!

- يا إلهي! أتعلم بأنني كنتُ أقتاتُ عليها في كل يوم!

- لا أستطيع أن أصدق ما أسمعه!

-صدّق يا صاحبي، حتى قلة حيلتك حينها كانت قوتًا لي!

-أرجوك أخبرني! فمئات الأسئلة تدور في مخيلتي!

- حسنًا، ولكن لن تفعل شيئًا لوحدك، سنفعل كل شيء سويًا.، وأخبرك بما حدث معي..

-حسنًا، اتفقنا.

-حملتُ أمتعتك من منزلك، ومررتُ إلى منزلي ،فوضعت الحقيبة في خزانتي، لأنني أردتُ أن أقابل بضعة أشخاص من الممكن أن يقدموا لك المساعدة للخروج من السجن ومن هذا المأزق الكبير، لم أفلح يا صاح، فوجدت نفسي بالقرب من شجرة الشولة، تأملتها مطولًا ،فقررت أن أجني ثمارًا منها كي تتذوقها، ولكن لم تكن ما تصله يداه ناضج، فحاولت أن أتسلق، فوصلت إلى غصن كبير فيه العديد من الثمار، انفرجت أساريري، حتى تناسيت بأنني قد أسقط في أي لحظة، وظننتُ بأنك ستفرح بهذه الهدية، ولكن قد كُسر الغصن ووقعت بداخل البئر، صرخت بأعلى صوتي مستنجدًا، ولكن لا أظن بأن حمقى أمثالنا سيأتون إلى هنا وينقذوني، وبقيت بلا أمل فأنت في السجن وأنا في ظلمة البئر، ولكن بعد يومين لم يستطع جذع الشجرة على حملي في منتصف البئر الفارغ، فسقطتُ إلى القاع، حتى انكسرت قدمي، تأوهت وجعًا، وكانت المياه التي تندفع فجأة من الداخل تروي عطشي، وبعد لحظات تختفي وكأن شيئا لم يكن !

لم أستطع أن أحتمل سماع تتمت الحديث، فذرفت الدموع وتبللت أجفاني حتى عانقت سامًا ،ولكنه قد قال لي ابتعد قليلا يا صاح فقد خرجت حديثًا من العملية، ولكن كيف خرجت من السجن يا علي؟

- سنتحدث بهذا لاحقًا، لا تقلق، هيّا تجهز ستصل عائلتك بعد قليل، ولكن لديّ مفاجأة، أتصدق بأن أمي قد عادت!

- يا إلهي يا له من خبر سار..

- ولكن لم تعد مزينة !

- ما الذي تعنيه بلم تعد؟

- لا نعلم أين قد ذهبت !

- لا تقلق يا علي، سنجدها بإذن الله..

ابتسم سام، ونظر إليّ مطولًا، وكأننا قد نجونا مجددًا.

أردت أن أهون عليه بما بدور في خلده.

- عائلتك بخير، بغيابك قد استلمت أمر المشفى، أي تدبرت أمر عملك، لكي تعلم بأنني أفهم بتلك الأمور أيضًا.

- لا أصدق يا عليّ، أي قدر هذا الذي نتعايشه..

فاطمة الشاش

(21)

أتساءل إن كان يتواجد شيء ما يجعل من الحياة جميلة المحيا، مزركشة الألوان، عذبة النغمات، متقدة لا يُخمد لهيبها، أي حينما يدب الرعب في المكان الآمن، نجد ما نلجأ إليه، لاهثين إليه، يأخذنا بين عضديه، ويمسح ذاكرتنا السوداء، نعود وكأن شيئًا لم يكن، وتصبح أرض الحرب ملجأ آمنًا تطؤه أقدامنا بكل خفة وثقة.

اشتدت عليّ الآلام في الأيام الماضية، حتى أن التفكير قد تسلّط على عقلي كما تسلط السرطان في قدمي، فكيف له أن لا يلتهمني وأنا التي قد أحدثت ثقوبًا عجيبة في طريقي، لا أتذكر حقيقة الأمر جيدًا، كنتُ أظن بأنني أضلل الأمر بالتوقف عن التفكير، والسعي في إخماد ألمي لوحدي، ولكن ما لا أجرؤ للتو على نطقه، أنني لا أتذكر حتى آخر مرة قد رأيت بها عائلتي، ولكنني قد أرسلت لأمي بريدًا إلكترونيًا في الفترة الماضية، أما قد أرسلته صحيحًا؟ أم أنني قد أخطأت بالعنوان..

في حين شرودي اقتربت الممرضة مني، وأجرت الفحوصات الاعتيادية سريعًا، فلم تقل أي كلمة أخرى، ثم همّت بالخروج من الغرفة، ولكن صوتًا بائسًا قد خرج من فمي: ما الذي حدث بشأن عائلتي؟

التفتت الممرضة قائلة : سأخبرك بالحقيقة يا عزيزتي، ولكن عليكِ أن تكوني هادئةً صبورةً، فقد بدأ علاجك يعطي نتائج جيدة جدًا ولا نستطيع أن نسمح بتدهور صحتك بعد الآن..

- يعني بأن ما ستقولينه ليس خبرًا سارًا..

- في نهاية الأمر هو الحقيقة!

- أرجوكِ أيتها الممرضة، لا تراوغي بالأمر، قولي ما ستقولينه دفعة واحدة، بلا حتى أن تنظرِ إليّ، أرجوكِ هيّا...

- حسنًا، من المفترض أن يخبركِ الطبيب حازم عن هذا الأمر، ولكنه قد طلب مني أن أخبركِ لأنه يرى بأننا كوّنا علاقة أخوة جميلة، فقد ذهب الطبيب بنفسه إلى العنوان، أي عنوان مسكن عائلتكِ، وجد البيت، ولكنّ سكّانه كانوا أناسًا آخرين، ولم يتعرفوا على أي أحد مما قد أخبرتنا به، فعزم أمره وتجول في الحي وذهب إلى المقهى، فأخبره صاحب المقهى بأن الأم قد توفت حزنًا على ابنها عليّ الذي أصيب برصاص العدو، وبقيت الشابة الصغيرة في ذلك المنزل قرابة الستة شهور

تتلوى حزنًا وضعفًا، ولكنها بعد ذلك قد قررت الرحيل ولا أحد منا يعلم إلى أين قد ذهبت وكل هذا الحزن تحمله في قلبها، فعندما سأله الطبيب عن اسمها قال : مزينة البراء..

شعرت بألم في قلبي وكأن رصاصة طائشة قد غُرزت به، والتهمت عافيتي، لم أفهم جيدًا ما الذي تقوله الممرضة، ولا أعلم لماذا عليّ أن أبكي وأصرخ وأستنجد، ولكنني كنت بالفعل أصرخ وصوت النشيج جعل من الممرضات والأطباء يهرعون إلى الغرفة، وبدأت أيديهم تلامس كتفي ووجهي وويداي، ولكن لم يستطع أحد أن يلتمس قلبي الذي قد ثقب قبل قليل، ولكن ما الذي يجعلني أصدق ما قالته الممرضة هذه، وكل ما بي يصرخ في وجهها كلا لا أصدق، ابتعدي عني.

فخرجت الممرضة تبكي من الغرفة، سمعتُ الطبيب يهدّأ بها أمام باب الغرفة وأخبرته عما حدث، فقال لها : قد جلبتُ معلومات صائبة بأدلة قوية..

فصرختُ مناديه : أيها الطبيب أرجوك قل لي ما الذي يحدث هنا..

فاقترب الطبيب وبدأ يتكلم بائسًا : أنا متأسف جدا يا عزيزتي مزينة، فرجل المقهى قد تعرّف عليكِ حينما أريته صورتك!

- وما اسمه ؟

- سالم القهحكي..

- ولكن اسمه سالم فرات، والقهكحي لقبه لأنه قهوجي وحكواتي في الآن ذاته.

فتبادل الطبيب والممرضة نظرات مندهشة.

فقال الطبيب هذا الأمر يجرنا إلى حقيقة واحدة.

- ما هي أيها الطبيب، قل أرجوك!

- قد تعرضتي لحادث قوي واصطدم رأسكِ بطريقة كارثية، حتى تم انقاذكِ من الموت بأعجوبة، وتذكركِ لصاحب مقهى الحيّ القديم، بالرغم من نسيانكِ أهم حدث كارثي في حياتكِ بالشهور القليلة ما قبل الحادث أو بسبب صدمة انفعالية وما يسمى بفقدان الذاكرة التفارقي، وبكلا الحالتين هذا يفسر فقدانكِ للذاكرة، وغالبا ما تتعرض الذكريات الجديدة للفقدان، لا تقلقي يا مزينة، سأفعل ما بوسعي ليعود كل شيء إلى نصابه..

شعرت برجفةٍ في جميع أنحاء جسدي، لم أستطع نطق أي كلمة ، حاولت الفرار من نظرات من حولي، تداعت قواي، تشتت رؤيتي، رجوتهم أن يدعونني وشأني،فخرجوا وبكيت مذعورة مما سمعته، مما قيل لي وذاكرتي تنكره..

فدخل رجل أنيق الهندام، عيناه شهلوان ، يشاهدني عن كثب، فرميته بنظرة قد جعلته يسير قاصدًا الباب، فراودني سؤال، فقلت له توقف، فوقف بلا حراك وقلته له : من أنت؟

فاقترب نحو النافذة، وفتح الستار، قائلًا : قد علمت بكل ما قد حدث لكِ على نحو المصادفة، ولكن أفضل خيار تمتلكينه الآن، هو الوقوف على قدميكِ مجددًا..

فخرج من الباب مودعًا بلا أن يقول أي كلمة أخرى، فتذكرت خيالًا من موقف صغير حينما أخذني أخي عليّ إلى حضنه مودعًا، يوصيني بأمي!!

...

(22)

متخبطًا أسير في طريقي، بعد أن خرجتُ من مستشفى الحرية مبشرًا إياهم بأن سام بخير وسيعود إلى العمل في أقرب وقت، وفي نفس الحين قد ودّعت الرفاق هناك، فلن أعود مجددًا، ولكن شيئًا ما قد حدث لي حينما خرجت من غرفة مزينة. فتاة القطار. وإذا بأنها شابة جدًا، هيفاءً متناسقة القسمات، تنظر بطريقة غير مألوفة، تجاهد كي لا تتخبط، أردت أن أتبادل معها أطراف الحديث ولكنها لم تكن بحالة تسمح لها ذلك، وفي طيلة تلك الأيام التي لم أجرؤ على الاقتراب من غرفتها، وجدتُ نفسي أحادثها وكأنني أعرفها منذ زمن، ولكن يا إلهي أين أختي مزينة قد ذهبت؟! أظن لو أنهما قد تقابلتا لأحبتا بعضهما البعض كثيرًا، فهما يحملان الإسم نفسه، ولمعة العيون والقوة ذاتها..

مررتُ إلى البقالة واشتريت العديد من الأطعمة التي يحبها سام ، وقميصًا أزرقًا وربطة عنق سوداء، بالرغم من حاجته للبقاء في المستشفى عدة أيام أخرى، ولكنه قد أصرّ إلى الذهاب إلى بيته، والبقاء بين أمه وإخوته، ولكنه في الأمس قد استشاط غضبًا حينما أخبرته بما حدث في غيابه..

رن الهاتف وبدأ يهتز في جيب معطفي، تناولته بيدي، فوجدت رسالة جديدة قد كُتب فيها " توخى الحذر جيدًا، ستبدأ من جديد للبحث عن عمل، وإيجاد حل سريع لعائلتك".

لم أبدي أي ردة فعل هذه المرة، لأنني لم أعد أكترث، طرقت الباب وجلستُ أداعب شعره وهو يخبرني بأن لا أقلق، فكل شيء على ما يرام، ولكنني فوق كل ذلك لم أكن مبتهجًا ولا ممتعضا بل كنتُ خائفًا وحسب، وكل ما بي من قوة أصبحت تتضاءل يومًا بعد يوم، أيقظني سام من شرودي المعتاد بعد أن شدّ على يداي قائلا : أما زلت قلقًا حيال من حولك؟

وكأنه قد أشعل بيديه ضوءا قد احترق منذ زمن في داخلي..

فتابع سام قائلا : سيلتهمكَ القلق يومًا، فكّر ولو لمرة واحدة ما الذي يحدث لك، ما شأنك والعالم يا علي!

فالتفتُّ مواجهًا إياه وقلت : ورغم كل ذلك أنا بخير، إياك والتفكير بي وأنت في هذه الحالة أيضا يا سام، وإلا أخاصمك، وتعلم جيدًا كم أنّ خصامي سيء جدًا..

فضحك سام متأوهًا وقال : وكيف لي أن لا أعلم يا علي، ففي عمر الحادية عشر قد تخاصمنا، ولم تعد إلى المنزل واضطررنا أنا وأباكَ أن نبحث في كل مكان، ولم نفلح، وعدتَ بعدها بعدة ساعات، وانهال أباك عليكَ بالأسئلة ولكنك لم تقل غير عدة كلمات " كنت أتنزه مع رفاق آخرين يا أبي"، كم غضبت حينها منك..

- كنتُ أفعل ذلك متعمدًا كي أغيضك يا سام، ولكن ألم أراضيك في صباح اليوم التالي؟

- أجل، ولكن أتعلم بأنني منذ ذلك اليوم أخاف من حزنك وإنغلاقك على نفسك، كم كنتُ أتمنى حينها أن نتشارك الحزن سوية كما نتشارك الفرح.

- كنتُ طفلًا حينها، ولم أعد ذلك الطفل الآن..

- قل لي إذا منذ متى وأنت لا تنام؟

- ثلاثة أيام ونصف على ما أعتقد .

- أتناولت شيئًا اليوم إذا؟

- لم تسنح لي فرصة كهذه !

- لا تفعل هذا بنفسك، أرجوك يا علي !

- لا أفعل شيئًا يا صاح!

- ولكنك تفعل ذلك الآن!

- ليس لهذا السبب!

- ولكن لماذا يا علي؟ أنظر فأنا بحالة جيدة، لا تقلق.

- وهذا ما أريد رؤيته أن تكون بخير..

- ولكن أخشى يا علي أن تكون قد جعلت من نفسك سببا لما حدث معي؟

- أولم أكن سببًا حقا؟ ، ولكن لا تكترث فمنذ زمن طويل قد حملت أعباءً كهذه على ظهري.

- بالطبع لا، هذا ما كنتُ أخشاه، حتى في ظلمة بئري كنت النور والسرور لي..

- ولكن ألم تصفعني أمي بكلمات بمثل هذه حينما قد فقدنا أبي!

- أنظر إليَ يا علي، أنظر جيدًا أرجوك، إياك أن تعود لهذا الأمر مجددًا، أرجوك، أعلم أن عودة أمك وما حدث معي واختفاء أختك مزينة قد أتى ثقيلا عليك، ولكن إياك أن تظن أنك كنت سببا في حدوث كل هذه الأمور.. تواقيت سيئة وهذا كل ما في الأمر يا صاح..

- لا تتكلم كثيرًا وترهق نفسك يا سام، نم جيدًا الآن، وتعافى سريعًا، اتفقنا؟ هيّا إلى اللقاء..

أجبت على مكالمة أمي بعد أن خرجتُ من بيت سام، فتوجهت إلى المنزل الذي لم أذهب إليه منذ يومين، وهذا تصرف فظّ اتجاه أمي التي جاءت إليّ بعد كل هذه السنوات وتركها لوحدها، فاشتريت الحلوى وبعض الزهور، لم يكن حارس العمارة في مكانه، فعبرت سريعًا، فوجدت طردًا كبيرًا هذه المرة قد رُكن أمام عتبة منزلنا، ولكن ألم تخرج أمي من المنزل اليوم؟ شيء مثير للدهشة حقًا، قد تلفت أعصابي وأنا أنظر إلى الشيء الذي أتساءل حوله الآن؟

حملت الطرد ووضعته في غرفتي سريعًا دون أن تلحظ أمي شيئًا، قبّلتها من وجنتيها ولكنها قد أخذتني بين ذراعيها وبدأت تبكي ظنًا بأنها قلقة من أجلي ومن أجل إخوتي اللذين لا نعرف عنهم شيئا، هدّأت من روعها، وأخبرتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، فقالت لي : أريد أن أتكلم معك بعد أن تتناول طعام العشاء.

فجهّزت أمي مائدة لذيذة وأطعمة لم أتذوقها منذ سنوات، فالتهمت ما استطعت، وكان كل شيء لذيذ للغاية، فشكرتها..

فقالت أمي : يا بني..

فلم تستطع أن تتم كلامها وبدأت تنشج، ولكن آخر مرة قد رأيت بها أمي تبكي هكذا كان يوم وفاة أبي..

- لا تبكي يا أمي أرجوكِ، ما الذي حدث؟

- قد وصلتني أخبار جديدة في مساء البارحة، فقد توفى أبي ليلةَ أمس ولم يحتمل المرض أكثر.

- يا إلهي، رحمك الله يا جدي، هدئي من روعكِ يا أمي، ولكن لماذا لم تخبريني في حال سماعك الخبر؟

- أعلم أنك لست بخير، ولم أرد أن أشغلك عن عملك أكثر للاهتمام بي.

- وأي عمل هذا يا أمي!! ، حبًا لله...

خرج صوت قوي من المطبخ، وأرادت أمي النهوض لترى ما الذي حدث، ولكنني أوقفتها، وعرفت بأن كأسًا من كؤوسي قد سقط متحطمًا.

- لا تقلقي، إنه مجرد كأس.

-كيف يا أمي ألا أقلق، ولم أعرف أي خبر جيد أو حتى سيء عن ابنتي أيضًا..

- سيعود كل شيء إلى نصابه، سأجلبها إليكِ، أي إلى منزلنا، ولكن يتوجب عليكِ أن تكوني قوية كي تكونِ بخير حينما تعود، أليس كذلك يا أمي؟..

ساعدت أمي في وضعها في سريرها، وبقيت مستلقيًا بجانبها حتى أسدَلت جفونها، أردت أن أحضنها وأبكي ولكن لا أريد إحزانها أكثر، فذهبت إلى غرفتي واقتربت من الطرد، وكلما هممت لفتحته، توهمت بأمور عديدة وتراجعت ولكن قبل أن تغفو عيناي من شدة النعاس، قررت أن أفتحه، فوجدت بداخله صندوقًا كبيرًا يحتوي صندوقًا آخر، وفي كل مرة أفتحه أجد بداخله صندوقًا أصغر منه حتى أنني قد راودني شعور برميه قبل أن أتوصل إلى نهايته، حتى فتحت آخر صندوق وهو بحجم اليد في داخله قلب لونه أحمر مصنوع من الزجاج..

و بجانبه ملاحظة صغيرة مكتوب فيها " هكذا يا علي لن تستطيع الفرار بعد الآن، فانظر كم أنك قد كنت جميلا حينها، تفقدني جيدًا فها أنا بقربك وبجانبك على الدوام"...

خلدت بعدها في نوم عميق متجاهلًا جميع الأصوات التي تنده باسمي، لم يدعونني وشأني، فكلما تغافلت إحداهما، ازداد إصرارا الآخر، ولكنني في نهاية الأمر أذعنتُ للبكاء وابتلت جفوني، واعتصر قلبي حزنًا، لا أذكر إن كان سيتعرف عليّ إن كان حيًا ولكنه يبقى جدي الذي لم يتخلى عن أمي أبدًا..

(23)

بدت لي الأشياء والأشخاص في مخيلتي كالدمى التي أستطيع تحريكها حيث أريد ومتى أشاء، أغضب من هذا وأحزنه بلا أن أنظر خلفي، أشتم ذلك، وأظلم الآخر وأشرد عائلاتهم، أمسك بأحدهم وأنفيه خارجًا، أو يحق لي بأن أقتل أحدهم وألقي التهمة على من أشاء، ففي نهاية المطاف من يستطيع أن يتحكم بهؤلاء البشر، ويقطع رزقهم، ويلوي ذراعهم، ويسد أفواههم، ويسفك دمائهم غير مبرمج لعبة ما؟ أم أنني قد تناسيت سر مهنتي بعد أن تم طردي من العمل ، ولكن ألا يبدو هذا الأمر مألوفًا جدًا، نتعايشه بلا أن ننعته بأي مصطلح ما خشية على أنفسنا من الموت أو الموت، فلا توجد خيارات أخرى يملكها ممن هم مثلنا، ولكن ألا توجد أي كلمات أخرى تنقذنا من كل ذلك، ترممنا بعد كل هذا السوء...

"أكتب لكِ بعد أن أخبرني صديقي الذي يعمل في إحدى دور النشر" الكروان " بأن أنسى أمركِ للأبد، فقد تم رفضك؛ لأنكِ مخلة بالقوانين، ألا تظنين بأنه أمر سخيف إلى هذا الحد، تُرفضين لكونكِ حقيقةً لامعةً لعائلةٍ صغيرة في إحدى بقاع هذه الأرض، انتشلتكِ من رحم المعاناة لأواجه العالم بكِ، لتكوني بين أيديهم على الدوام، لتجوبين العالم كما تمنيت دومًا، كما حلمت وما زلت أحلم، أن تكوني أول رواية أكتبها، ليضعوا تحت جملكِ الملحمية خطوطًا حمراء، ليكون اسمي على غلافكِ، ليبقى أثري حيًا بعد موتي، ولكن أظن بأن مرجعكِ إليّ لتكوني بين ذراعي لوحدي، تواسيني، بعد أن تم رفضكِ للمرة العشرون، بعد محاولات عديدة من الكروان لطباعتكِ ونشركِ، ولكن أظن أن الأمر هذا ينتهي إلى هذا الحد يا ألم قلبي، وصداع قلمي، وأنين حبري"

(24)

لِما عليّ الآن أن أكتب، أو بالأحرى ما الجدوى من تسرّب الكلمات من الشفاه إلى الأوراق والتوثيق، ألا يعني ذلك فقد المتعة في العيش بخفاء، أو أن معايشة الشعور العظيم في قلب صغير تتسرب منه العَبرات على حين غرّة في كل مساء، من الأمور التي لا تطيق صبرًا وتحملا؟

أجل، فقد عرفت ذلك منذ فترة وجيزة، وواجهت أضخم إعصارٍ بمفردي، حتى أنّه قد أوشك على أن يجرّدني من أعظم شعور أنتشله في صدري، ومن أسخف سبب للضحك وللبكاء معًا، ولكن شيئًا ما قد حدث بدون إذن مني، وكأن كل الأبواب التي قد أحكمتُ إقفالها قد فُتحت على مصرعيها، بلا أي أدنى إحترام لخصوصية قد فرضتها منذ زمن.

إنّ أكبر إخفاق هو ترك أصغر مفتاح على رفٍ قد اعتاد الناس استعارته، يقحم أكبر باب في خطر.

فكم من الثغرات قد أحدثت ندوبًا أطالت بالحزن أيامًا وشهورًا، وعينا الناظر لا تبدي أي اهتمام، ولا ترمق شفقة ولو كان كذبًا.

هي حقائق توثّق على مرّ الأزمان ولو كانت مرّة كالعلقم، تساهم في الضحك والبكاء والحزن والمرح والجنون والسكون، ولكنها في نهاية المطاف قد وضعت يديها على الجراح، والفرق بينها وبين الأوهام، بأنها كانت داءًا موضعيًا، لدواء لا تنتهي صلاحيته.!

إنني أبحث عن نفسي في دوامة تتداخل فيما بينها التعاسة والسعادة، لا شيء يحرّض على الحزن، ولكن لا تُسحب الأيدي نحو الأمل المعلق في السماء.

اعتدتُ أن أحزن للحزن الذي أراه، وأن أبكي فرحًا للضحكة التي تشتتُ اتزاني، وكنتُ في نهاية الأمر أبكي للحزن وللفرح معًا، وكان ذلك تعبيري، لا أبغض هذا الأمر أبدًا، ولكنني أصبحت أراه تعبيرًا لا صمتًا يثير الجدل والاستخفاف..

لم تسمح لنا الحياة بأن نكون عائلة حقيقية بعد وفاة أبي، وكأنني كنتُ المسبب الوحيد في ذلك، فلقد حملت ذلك الذنب طوال عمري، وعاهدت نفسي بأن أعيد كل شيء إلى نصابه، ولكن في بعض الأحيان يخيب ظن المرء بعد أن بنى حلمه وتأمل به، فكان عوض الله لي بصديق قد حمل همي فوق همه على كاهله بلا أن يشتكي ولو لوهلة واحدة، فخطوت خطوات عديدة بعد ذلك بقربه ولكنني قد أخفقت مجددا، وتلويت ألمًا بعد أن أقحمت رأسه في المصائب واحدة تلو الأخرى، وكانت هذه النهاية في مخيلتي، حتى تسرب ضوء الشمس من نافذتي، بعد أن عشنا ليلة عصيبة في الأمس، فسمعتُ صوت الباب يقرع بشدة، وكان ذلك الصوت نقطة تحول عظيمة في حياتنا، خلعت ملابس النوم، وهرعتُ نحو الباب قبل أن تستيقظ أمي، فوجدت نائب المدير التنفيذي للشركة التي كنتُ أعمل بها، يريد مني أن نعقد اتفاقا جديدًا!

لم أُبدِ أي ردة فعل، بل كنتُ مثل المياه الراكدة، إلى أن قال لي : قد وقعنا في مأزق كبير، ولا يوجد أحد يستطيع إنقاذنا منه سواك !

ولكنني لم أعد متواجدًا بينكم، ولا أستطيع تقديم معروف كهذا لشركة قد طردتني من العمل تعسفًا.

- ولكن.. لن يعدّ ذلك معروفًا!

- وماذا يعدُّ إذا؟

- أصبحت الكرة الآن في ملعبك يا علي، ستكون رئيس المشروع الذي تسبب بخلافك مع المدير، براتب أفضل بكثير مما كنت تأخذه سابقا .

- لا أنكر أنك رجل شهم وذو أخلاق عالية وصادق، لكن لماذا أنا؟

- كما قلت لك، لأنني لا أثق بأحد غيرك.

- ولكنني لا أقبل بالعودة إلى العمل بجانب ذلك الرجل !

- ولكنك لن تكون بجواره هذه المرة، لن يكون المسؤول عنك، ستنتقل إلى مكتب الفرع الآخر للشركة.

- سأفكر بالأمر وسأتواصل معك.

- في انتظار ردك يا علي، اسمح لي الآن، إلى اللقاء..

فاطمة الشثري

(25)

"كيف استطعتِ أن تبقي نقية هكذا بلا أن يستطيع أي شيء تلويثك، وفوق كل هذا تبدين لامعةً جدًا، على الرغم من شحوب وجهك، وهالاتكِ السوداء وجسدكِ النحيل..

أود أن أخبركِ بالعديد من الأمور يا مزينة، أن أرتّب جُملي كي تبدو مرهفة الحسّ حينما تقرأينها، ولكنني لم أستطع فعل ذلك، وكأن كل ما بي يريد النطق، ما أريد قوله باختصار شديد، إن استطعتِ أن تفتحي لي شقًا في خندقكِ، فسأكون ممنونًا للأبد "

المرسل : علي جاد الحق..

أعدتُ قراءة الرسالة التي جلبتها لي الممرضة عشرات المرات، لم أفهم شيئًا، أو أنني أردت أن أتغافل عن كل شيء، إلى حين أن أستعيد ذاكرتي جيدًا، وأطفئ تلك النيران التي تحوم في صدري ؟أين أمي؟ وأين أخي عليّ.. أعادوا لي الحكاية مئات المرات بعد أن أجبرتهم على فعل ذلك، ولكنني أشعر بفراغ كبير،لا تصله الأيادي ولا تطأُه الأقدام..

دخلت الممرضة مرة أخرى إلى الغرفة وأخبرتني بأنني قد تماثلت للشفاء، ولكنني سأخضع لعملية بسيطة قبل أن يتم تخريجي من المستشفى وصدور النتائج، للإطمئنان بأنني قد انتصرت على السرطان، وسأستطيع الهرولة والركض وليس فقط المشي..

وقبل أن تخرج الممرضة اقتربت من سريري وجلست بالقرب مني قائلة : نسيت أن أخبركِ بأنه قد وصلتكِ رسالة أخرى ولكنها مع هدية..

- ومن المرسل هذه المرة؟

- المتبرع نفسه، علي.

-أريني ما الذي أرسله؟

- كتاب.

تشكرتُ الممرضة، وأمسكت بالكتاب مرورًا باسم " الفوضى الخلاقة" للكاتب علي جاد الحق..

لم أكن أعلم أنه كاتب أيضًا، تركت الكتاب جانبًا وبدأت بقراءة الرسالة..

" إنه صباح جميل للغاية، فلقد عادت المياه إلى مجراها، أي عدتُ إلى عملي وهامتي مرتفعة، أردت أن تكوني أول من يقرأ روايتي التي رُفضت من قِبل جميع دور النشر، لعلكِ تجدين بها ما أضعتهِ، ولكنّ الكلمات لا تساوي شيئًا أمام الأفعال، فلقد تحريتُ جيدًا عنكِ، وكأن بطلة روايتي قد خاضت حربكِ بالفعل، ولا أظن بأن ذلك تصادفًا عاديًا أبدًا، بل تصادفًا عجيبًا يا شريكة قدر قلمي"...

شعرتُ بوخزة قوية، وانغمرت العَبرات على وجهي، وكأنني قد استسلمتُ للحرب التي خاضتها بطلة رواية علي، حتى قبل أن أقرأها، شرعت في قراءة الرواية، وتوقفت عند الكثير من الجمل التي جعلتني أتفكر بها، أن أدوّرها في رأسي مرارًا وتكرارا، وأرغم نفسي على تذكر حكايتي عبرها، مرّ اليوم بأكمله وأنا منهمكة في القراءة، رافضة أن أرفع رأسي كما طلب مني الطبيب، وحينما تجاوزت الساعة الحادية عشر مساءًا قد بدأت في قراءة الصفحة الأخيرة من الرواية التي كتبتُ على لسان البطلة تقول فيها..

" وكأنني قد تجاوزت ربيع العمر وعبرتُ خريفه بقدماي العاريتان الداميتان، وتسلط القهر والذل في طريقي منذ اليوم الذي أضعت فيه بوصلتي، ورموني بالحقيقة فأصبحت مثل شجّ في وجهي، يرافقني أينما حللت، أتتبع أثر من تبقى من عائلتي، وأرسم في مخيلتي بيتًا كبيرًا يضمنا جميعًا، نأكل ونشرب ونلهو ونشاهد التلفاز، ويحضر ليَ أخي الحلوى، ويداعبني أبي، وتطهو لنا أمي الطعام الذي نحبه، ولكن على حين غرّةٍ يتطاير كل شيء كما تختفي فقاعات الصابون في الهواء سريعًا..

وأجلس وحيدة على حافة كرسي قديم في حديقة ما، أتطلع إلى الحياة مجددًا، وبرفقتي حلمي اليافع، علّني أكون المنتصرة في نهاية هذا الأمر ".

وكأن رفيف (بطلة الرواية) قد أمسكت باليد التي تؤلمني، فلم تدعني وشأني قبل أن ترفع الستار وتطلعني على الحقيقة التي نسيتها مجبرة في حادث القطار، وبكيتُ أمي وأخي عليًا، وإجباري على ترك المنزل، إذ لم يتبقى لديّ المال لدفع أجرته، فهربت إلى بلدٍ لا أعرفه، أبحث فيه عن عملٍ جيد، ولكن هروبي قد كلفني الكثير، ولا أدري ما الذي سيكلفني إياه بعد...

(26)

التهرّب من إتمام نقص الحروف قد أثار حفيظتي، قد جعل من جوفي مليئًا بالماء الذي لا أستطيع بلعه ولا بزقه، كالوشم المحرّم على جسد طاهر محتشم، فما الذي جنيته من الصراعات التي مزّقت داخلي غير الآلام والندوب والحساسية الزائدة من الأقوال والأفعال والنظرات الحادة منها والمتطفلة! فما الذي تجديه المحبة بعد المعافاة، بعد معايشة ذلك الشعور الذي يفتك القلب، وينطوي به المرء على نفسه منطفئًا، حتى إن إدراك الأمور بعد فوات الأوان أمر مرهق للغاية، يحرق الروح، ويكدّر الحياة، فحتى الحزن لن يستطيع إفساد يومك فحسب، بل باستطاعته أن ينخر في عظمك إلى أن يصبح كل شيء حطامًا.

ولكن المعضلة الحقيقية هل تستطيع الكلمات أن تخترق جدار الصمت، وأن تتوغل في إتمام نقصها بعد كل هذه الأيام السيئة؟

لم تكتفِ المياه ببلع مجدافي بل التهمت قاربي الذي سعيتُ من أجل بناءه كثيرًا، ولكن حينما يسلم المرء نفسه لقدر الله، ويردد في جوفه "الخيرة فيما اختاره الله"، حينما خرج نائب المدير من المنزل كنت مبتهجًا جدًا، فلم أجعله ينتظر كثيرًا وقبلت عرضه فورًا، فإن تضييع الفرص ليس من طبعي، فأرسلت رسائل عديدة لفتاة القطار علها تستعيد ذاكرتها، وضحكتها مجددًا، وبعد ذلك قد قرع الباب مرة أخرى وحين تأخرت قليلًا بفتحه بدأ يطرق بشكل فظيع، فهرعت وأمي إلى الباب فكان الحارس يلتقط أنفاسه ولا يستطيع التحدث..

أجلسته وجلبت له أمي الماء وبدأ يبكي قائلًا : لم يعد هنالك العم ناجي مجددًا، فلقد ذهب إلى جوار ربه، بعد أن أصابته جلطة دماغية على نحو مفاجىء..

لم أستوعب ما سمعته للتو..

حلّاق حيّنا ورفيق عائلتنا ومرشدي الذي كان بمثابة أبي..

تأوهت وصرخت قائلًا : كلا لا يمكنه الذهاب بهذا الشكل إطلاقًا، قبل أن أقبّلَ رأسه، قبل أن يرى يوميَّ السعيد الذي حان وشوكه.

أوصاني أخبارك بأن كل شيء سيكون على كل يرام، يكفي أن تكون صبورًا، وأنك كنت بالنسبة له أجمل هدية قد نالها على الإطلاق..

فلم أنطق بكلمة أخرى، جلستُ أرضًا، أبكي من شدة حزني، ولكن صوت الكسر في المطبخ لم يكن عاديًا للتو ظننت بأن جميع الكؤوس قد سقطت أرضًا وتحطمت ولكنني حينما خرعت صوبها وجدت كأسًا قد تحطم إلى جزيئات صغيرة، بدأت أجمعها وأنا عاري اليدين ولا أخشى من نزف جروحي، فقد ثقب قلبي قبل قليل، ولكن الدماء التي تساقطت من كف يدي، وأطراف أصابعي أصابتني بالذعر، وبدأت أبكي بصخب، فوجدت أمي فوق رأسي تجاهد إخراجي من متاهتي التي لا تفهم منها شيئا، هدأتني كطفل صغير بحاجة ماسة إلى جناح أمي كي يضمه، لم أقلق بشأن كؤوسي هذه المرة فقد أصبحت . من قلتها . تعد على أصابعي!

غسلت وجهي ونهضت إلى المسجد كي نصلي عليه، فوجدت سامًا يقف خلف الأمام ووجهه المصفر يقطر حزنًا وأسفًا، فبعد أن خرجنا، أخذته بين ذراعي وقلت له بصوت مبحوح : قد رحل صاحبنا يا سام.

- وإن القلب ليحزن يا علي.

- سنداوي جراحنا سوية!

- بالطبع، ولكن أنظر إلى وجهي أأنت بخير؟ كيف استطعت أن تأتي إلى هنا! لماذا لم تبقَ في فراشك يا سام!

- لا تقلق، فأنا بخير، بالكاد قد استطعت الوقوف على قدماي، وفي كل حين أشعر بوخزة قوية في معدتي، وكأن تلك الخشبة ما زال تحفر بها، ولكن مع ذلك أنا بخير لأقف بجانبك هنا.

- تعافى جيدًا أرجوك..

- قلت لك لا تقلق يا علي، ولكن ألم يأتي أحد من أقرابه إلى الجنازة؟

- كلا، لم يأتي أحد!

- ولكن أليس له ابن يقطن خارج المدينة؟

- لم تكن علاقتهما جيدًا في آخر زيارة له، وأظن بأنها كانت منذ عامان..

- أمن المعقول أن يترك الإنسان والده عامان بلا أن يراه ويطمئن عليه!

- لا تستغرب شيئًا، فكل شيء قد أصبح مألوفًا جدا.

- ولكن أليس صعبًا أن يعيش المرء وحيدًا ويموت على ذلك..

- بلى! فما عسانا أن نفعل غير أن نهون على بعضنًا مشقة الطريق...

أوصلت سامًا إلى منزله وقبل أن يدخل رفع بيديه ملوحًا إلي قائلا : كن قويًا فإذا لم يكن من أجلك بل من أجلنا، وانتبه على هذا جيدًا (مشيرًا إلى قلبه) ، أشعرُ بأنكَ ستطلقُ قنبلةً قريبًا..

فضحكتُ رغمًا عني حتى قلتُ له : سأكون بخير أيها المخادع، إلى اللقاء.

اهتز الهاتف ووصلتني رسالة مكتوب فيها : " لا يتخلى المرء عن نفسه حينما تجتاحه الشدة، بل يشد من أزره ليكون عونًا لمن هم بحاجته يا علي"..

كلما قلت لنفسي "اهدأ يا رجل لقد مضى وقت طويل لجعلك تعتاد على هذا الأمر" ولكن من حزمَه أصبحتُ أراني في كثير من المرات مغتاظًا بائسًا وهذا كل ما في الأمر..

أردت الذهاب إلى المنزل بعد هذا اليوم الشاق، ولكن اجتاحني شعور قوي كم أنني بحاجة ماسة للهروب وللإنطواء، فخطر على ذهني شجرة الشولة، ولكن تجاهلت هذه الفكرة فلا أصلها بعد ذلك اليوم إلا برفقة سام، فتهالكت على كرسيَ في حديقة منزلنا، وأغمضتُ عيني أفكر بلا توقف، وما إن فتحت عيناي إلا وجدت طردًا صغيرًا بجانب الكرسيّ، أظن بأنني قد غفوت بعمقٍ لدرجة أن لا أشعر به، فوضعته في حضني، مقررًا فتحته بلا تردد، فهو دائمًا ما يبدو عاطفيًا غير ذلك المتسلط ذو الرسائل، إن لم يكن الشخص نفسه ويتمتع بانفصام في شخصيته، فوجدتُ في داخله تمثالًا صغيرًا يشبه شابان كلًا منهما يميلُ على كتف الآخر، ومرفق بملاحظة صغيرة "وإن اعتادت الأيام أن تؤلمنا ففي كتفٍ نعرفه يستخلص منه الدواء"

فهربت من هذه الفوضى التي تجعل الإنسان متخبطًا لا يُعرف له طريق، وحينما اقتربت من الباب سمعت صوتًا أعرفه جيدًا، خفت في بداية الأمر أن يكون مجرد تسجيل ما، ولكنني لم انتظر ففتحت الباب ووجدت أختي مزينة الشقية مستلقية في حضني أمي تداعب شعرها ضاحكة، وثغرها مبتسم....

(27)

أطلقتُ ضحكة صاخبة وبدأت أفرك بعيني وأنادي أيتها الشقية تعالي إلى هنا، ولكنني للتو قد أدركت بأنه كان خيالًا باذخ الجمال، لم أنتزع حذائي واقتربت من الكنبة الفارغة أتحسسها، تكورت على نفسي، فسمعت صوت أمي تقول لي : ما الذي يحدث؟ أأنت بخير يا علي؟

رفعتُ رأسي المثقل متأملًا قسماتِ وجهها، وكأنّ انعكاس لون العشب انصبّ في عينيها، فاقتربت أمي تداعب بيداها شعري، وكأنها تقول لي حتى صمتك يفتعل ضجيجًا، قل شيئا !.

تلفتُّ حولي، بدأت أشعر بأنني قد أصبتُ بمرض ما، أو أن قلة النوم قد أحدثت اضطرابًا في حياتي، فقالت أمي مجددًا وهي تنظر بداخل عيني : لا تستطيع مسامحتي إطلاقًا، فهذا من حقك، ولكن اجعل لي مكانا بقربك، أستطيع أن ألمسك من خلاله بلا أن تفر مني.

- ومن الذي قال بأنني لم أسامحكِ يا أمي.

- لا تجبر نفسك يا بني، فقد حملتك أثقالًا تفوق مقدرتك، فلم أستطع إنقاذك ولا حتى أن أنقذ إخوتك جاد ومزينة، فأحدُهما في السجن والأخرى لا نعلم لها طريق..

- لا تقولي هكذا يا أمي، فلا تنظري للماضي بعد الآن، يكفيني وجودكِ بالقرب مني رغم كل شيء.

- ولكن خارجك الحاد، يجرح أطراف أصابعي كلما مددت يداي إليك..

- لأنني لست بحاجة للمواساة يا أمي، فكل ما في الأمر بأن كل الأمور تأتي تباعًا، وأشعر بأنني مرهق للغاية وبحاجة للنوم.

- سأجهز لك الطعام أولا

- قد أكلت بالخارج، لا تتعبي نفسكِ.

-أتريد إخباري بأي شيء إذا؟

- أشعر بأن قلبي بدأ يعمل مجددًا، أتستطيعين التصديق ؟

-يا للهول، إنه خبر سار جدًا يا بني..

- لا تنفعلي يا أمي كثيرًا، أشعر فقط بأن باستطاعتها أن تمنحني ونفسها عائلة جميلة

- وأنا أفعل كل شيء من أجل سعادتك يا بني..

أتساءل لمَ عليَّ أن أُطلعَ العالم عما يثير مخاوفي؟ ، أكانتَ الآمال الموصولة هي ضالتي؟ أم أن هنالك شيء ما خُفيَّ منذ زمن، وضُلّلت الحقائق، حتى ظننتُ بأنني قد كُنت الكائن الذي لم يكن له أثر يومًا.

لا ضير إن تُركت الإجابات مبهمة، فلم يعد الأمر برمّته يقلقني، أفمنَ العقلانية أن يصبح الإنسان دائم البحث عن الكلمات والجمل، وبوسع العالم أن يُغرقه بالأفعال بأقل مجهود يُذكر؟

الخيبة هنا يا صديق، بأن أي كلمة أتلقاها تتبعها أثر شفقة تثير سخطي، وأيُّ كذبَ جريء يدعوني للغثيان، وأيُّ مزاجية تفوق حدّ العقلانية، تجعلني في أتمَ الإستعداد للرحيل..

كم كرهت الأنصاف طوال حياتي، فالحضور الباهت، والاهتمام المتعثر، يجبرني على الانسحاب، أيّا كان خصمي، فإن لم تستطع أن تمثّل إنسانيتك بأكملها، فعند حضورك كن بأكملك أو لا شيء منك..

فوجدت نفسي أمنحني وأمي وفتاة القطار عائلة جيدة تستطيع أن ترفع رأسها من الأنقاض، وتفر هاربة إلى الحياة، ولكنني لم أخبر أمي بأن الفتاة مريضة سرطان تماثلت للشفاء، و قد تعرضت لحادث مروع جعلها تفقد ذاكرتها مؤقتًا، وكم أنه وصف يسهل قوله وتصعب معايشته، فلا أستطيع أن أخوض نقاشًا كهذا مع أمي فستقول لي حتمًا بأنني ما زلت شابًا، أمتلكُ مهنةً جيدةً، أي باستطاعتي أن أختار فتاة بمواصفات أفضل..

أرسلت رسالة لمزينة أواسيها بفقدان أهلها، بعد أن استعادت ذاكرتها كما أخبرتني الممرضة، ولكن جاء الرد سريعًا منها : لا تقلق يا علي، أظن بأنني على ما يرام..

فليت باستطاعتي أن انتشلها من أروقة هذا المشفى وأن أجلبها لتعيش بالقرب منا، كي نطمئن عليها بين الحين والآخر..

وصلتني رسالة مكتوب فيها :

" لن تستطيع دائمًا إنقاذ الآخرين، بالكاد تستطيع إنقاذ نفسك"

فاستحممت، وذهبت إلى الفراش كي أنام، رفعت وسادتي فوجدت تحتها طردًا صغيرًا جدًا، بداخله قلبان صغيران، وبجانبه ملاحظة صغيرة " تستطيع جمعهما أليس كذلك؟ وهذا لا يعني بأنك ستنقذ الآخرين، بل ستقذ نفسك حينها "..

وضعت الطرد بجانب السرير والألم الذي في رأسي يزداد بين الحين والآخر، فأغمضت عيني مجبرًا نفسي بعدم التفكير والفرار..

(28)

قلتُ محالًا أن أكترث بعباب البحر، ولكن فعلي قد سبق فكري ورحتُ أهرول نحوه، كما لو أن عُمري قد انتصفَ وراح الطفل الذي في داخلي يلهو ويعدو.. كم عانيت، وكم ضمّنا الحزن وهو لم يكن سوا منادى لا يستحق إلّا النصب..

وكم تقلّصنا وتهدّل شعرنا وغارت العيون الشجيّة بالدموع، وبهتت ابتسامتنا، وشحبت نظراتنا، بعد أن توانينا ولكننا لم نرد الإنكسار كما أردنا أن نهشّم جميع الذكريات التي باتت مليئة بالحزن تشبه واقعنا الأليم.

وجدتُ نفسي في غابة كثيفة من أشجار الزان والدلب والبتولا، فلا أدري ما الذي جاء بي إلى هنا، فآخر شيء أتذكره بأنني كنتُ أتحدث مع أمي، لم أكن أرتدي ملابسًا دافئة تقيني هذا البرد القارص فشعرتُ برجفةٍ قوية في جسدي دفعتني لألجأ إلى شجرة الزان محتميًا بها، وما إن أسندت ظهري إلا وبابا صغيرًا يفتح، فوقعت في داخلها وانغلق الباب بعدها سريعًا، واصطدم رأسي جرّاء ذلك بمنضدة ممتلئة بالكثير من الكتب والروايات والجرائد والمجلات وغيرها الكثير، حتى أن الأرض قد امتلأت بذلك ، والمصابيح الصغيرة ذات الضوء الخافت قد انتشرت في كل مكان، امتقع وجهي ،جاهدت كي لا أغضب ولكن الذعر قد تمكن مني ، فلم أعرف ما الذي عليّ فعله، فتشتُ في جيوبي فلم أجد هاتفي، تحسست رأسي وإذ به قد خُدش ونزفَ دمًا، فبدأت ضربات قلبي تتزايد فأغمضتُ عيني متمالكًا نفسي، أحدثها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، أمسكتُ بورقةٍ مرميةٍ على الأرض، وحاولت أن أمسح بها خثرات الدماء التي تجمعت على جبهتي، فآلمني ذلك وانثنيت عن فعله سريعًا ، حاولت أن أصرخ مستنجدًا، ولكن من يجرؤ على دخول مثل هذه الغابة في الظلام الدامس..

آه يا علي ما الذي جاء بك إلى هنا، أكاد أجن يا إلهي، فوضعت يدي على قلبي، فتناثرت جميع الطرود التي وصلتني منذ بداية عمري تتساقط من الرفوف العلوية في هذه الغرفة التي تعجُ بالكتب، رجعت إلى الخلف مذهولا مما رأيت، أردت أن ألمس إحداهما وأرى ما بهما، ولكن ما إن لمستُ أحدهما حتى نطق قائلا،" لماذا تهاب لمسي، وأنا الذي دائمًا بقربك على الدوام، مشاعرك وعواطفك وأحاسيسك وذاكرتك الصغيرة، فأنا قلبك يا علي! لا أدري لماذا أنت مذعور هكذا، فأنا هدية الله المقدسة إليك، فإن طهرتني فقد طُهرت نفسك وبقيت مطمئنًا، وإن أعميتني فإنها ستعمى الأبصار"..

تراجعت إلى الوراء ، ممتلئًا بالتساؤلات والذعر ،فمسدتُ على صدغي في محاولة بائسةٍ لإعادة تركيزي وفهم ما الذي يحدث هنا، فلم أتحرك خطوة واحدة بعد، إلا وانهالت على رأسي قصصات ورقية، فجثوت أرضًا أرى ما الذي قد كتب فيها، فأدركت حينها بأنهم جميع الرسائل التي تصلني على هاتفي، فأمسكت بورقة منهما كي أمزقها، ولكن خرج صوت قوي يقول لي " لا تفعل ذلك يا علي، فأنا إدراكك ، خادمك المطيع، قوتك التي تساعدك على التميز والابداع وحل المشكلات، فأنا عقلك الذي لا تستطيع فعل شيء بدوني، فأن أحسنت استخدامي جعلتك في مرتبة الشرف، وإن سحقتني تكون قد جررت بنفسك إلى الهاوية"..

لم أجد أي شيء لقوله، فانطويت على نفسي، وركبتاي غارقتان في صدري ، أتفكر بما يدور من حولي، ومن جهة أخرى أحاول الفرار مما أنا به، فبعد عدة محاولات جررت بقدماي إلى الطرف الآخر من الغرفة فوجدتُ طاولةً مليئةً بالكؤوس تشبه طاولتي، فاقتربت منها رويدًا رويدًا، أتأمل ما بها، فوجدت فيها كؤوسًا لامعةً وأخرى مخدوشةً وبضعها متحطم، ولكن حينما حدقت بالنظر على الطاولة قد كتبت عدة كلمات، تحت زجاج الطاولة " كؤوسك هي علاقاتك التي تكونها مع الآخرين، فمنها من يجعلك مخدوشًا ومنها من يحطمك إما بجهالتك أو بحبك أو بما يقابله بكرهك"

ف انطفأت الأضواء، وأصبح المكان ظلامًا دامسًا، فرأيت بأنني لا أطيق صبرًا حتى صرختُ بكل قوتي، أرجوكم أخرجوني من هنا، أرجوكم أنقذوني، سام أين أنت يا صاح، أمي، مزينة، فتاة القطار.. أرجوكم"..

فتحت عينيّ وجميع من أحبهم متحملقين حولي، لم أستطع نطق كلمة واحدة!

رفعت بيدي لألمس يدَ أمي فوجدت بأن مصلًا موصولًا بوريد يدي، فقالت أمي ودموعها على وجنتيها: لا تتحرك يا بني، أظن أنك رأيت كابوسًا، مما جعلك تصرخ هكذا، هل أنت بخير يا علي؟

- ما الذي حدث يا أمي، لماذا أنا في المشفى؟

- قد كنتَ تكابر يا أمي، وتقول بأنك بخير، ولكنك قد هذيت كثيرا ليلا، وأصبت بالحمى وتبعًا لذلك فقد أغشي عليك، فاتصلت بسام وجلبناك إلى هنا..

- لا أشعر بأي شيء يا أمي..

- لدّي ما أخبرك به يا علي.

- إن أردتِ قول شيء ما، فقوليه لي هكذا دفعة واحدة بلا أن تأخذي نفسا حتى، ولا تكترثي بي.

-سأفعل، عثرنا على مزينة، بل بتعبير أفضل قد وصلتني منها رسالة تقول فيها " تعرضتُ للسرقة وأنا في منتصف الطريق في إحدى المحطات , واضطررت للإقامة في نُزل قريب حتى أستطيع أن أستعيد

أموالي وشهاداتي ، وأمضيتُ أيامًا وأنا أنتظر خبرًا من قسم الشرطة ، وبعد ذلك قد أعادوا لي حقيبتي فارغة إلا من الأوراق ، فأكرمني الله بعملٍ جيد ، وبعد أن حصلتُ على الأموال ، انطلقتُ مجددًّا ، وسأعود في القريب العاجل، سأتصل بكِ لاحقا، واعتذر جدًا على عدم استطاعتكِ للوصول إلي"

- قد أرحتي داخلي يا أمي، أشكر الله على كل شيء.

لامست يداه شعري، فاطمأننت بأن لديّ من الصداقة ما يلمع ويضيء لي الطريق، فهمس في أذني قائلًا استعد وعيك، فلدينا الكثير من الأمور التي يتوجب علينا فعلها ، فمثلًا سنتخلص من عزوبيتك، فقد أخبرتني أمك بما أخفيته عني أيها المخادع....

إنه بالكاد قد استطاع أنّ يربتَّ على كتفيَّ دائمًا، بلا أن يمدّ يداه بالحقيقة، ولكنّ الكلمات لطالما تكفّلت بالأمر، وكانت الهيّنة الليّنة، السمحة التي استطاعت أن تفتح سردابًا ذو رائحة عطنة تبعث على القيء، لتستبدلها برائحة الياسمين الفوّاحة.

فمن أجل الوصول إلى بر الأمان، إلى المساحات الفارغة، إلى المقاعد المنفردة، يتطلب منك المزيد من التخلي، حتى تصبح قادراً على الوقوف مجدداً بلا عكاز تستند عليه..

فالحساسية المفرطة إزاء النظرات والأفكار والكلام والأشخاص قد التهمت من عافيتي ما استطاعت التهامه ، فكنت الأفضل في من يتلذذ في عذابي..

لطالما وقفت على الأطلال أتأمل حلميَّ اليافع، وطموحي الجميل، وأختلس النظرات الواعدة وأنا أتطلّع للمزيد من الفن والإبداع والاستمرار إلى الأبد !.

فاطمة الشناش

فاطمة الشاش

تمّت